



رعاية الأسرة المسلمة للأبناء

شواهد تطبيقية من تاريخ الأمة

بقلم

د. عبد الحكيم الأنيس
كبير باحثين أول بإدارة البحوث

التدقيق الطباعي
سيد المهدي أحمد

صف وإخراج
نايل بدوي آدم

حقوق الطبع محفوظة

ISBN978-9948-499-02-2

الطبعة الأولى

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري بدبي
إدارة البحوث

هاتف: ٦٠٨٧٧٧٧ ٤ ٩٧١ + فاكس: ٦٠٨٧٥٥٥ ٤ ٩٧١ +

الإمارات العربية المتحدة ص. ب: ٣١٣٥ - دبي

www.iacad.gov.ae mail@iacad.gov.ae

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال التابعي الجليل عامر بن شراحيل
الشعبي (ت: ١٠٤هـ):
«لو أن رجلاً سافر من أقصى الشام إلى
أقصى اليمن، فحفظ كلمة تنفعه
فيما يستقبل من عمره، رأيت أن سفره
لم يضع».

افتتاحية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين..

وبعد: فيسر « دائرة الشؤون الإسلامية والعمل الخيري دبي - إدارة البحوث » أن تقدم إصدارها الجديد «رعاية الأسرة المسلمة للأبناء: شواهد تطبيقية من تاريخ الأمة».

وهذا الكتاب إضافة جديدة إلى مكتبة تربية الأبناء في الإسلام، ويتولى الكشف عن الجوانب التطبيقية في هذه التربية، مستنبطة استنباطاً عميقاً من تاريخ الأمة وأقوالها وأعمالها وتصرفاتها.

لقد كتب الكثير عن الجوانب التأصيلية لتربية الأبناء، ويأتي هذا الكتاب ليبين كيف طبقت الأسرة المسلمة تلك الجوانب، وهو ما نحتاج اليوم إليه كثيراً لنستهدي به ونسترشد في عملية التربية، هذه العملية التي يتوقف عليها مستقبل الأمة.

وهذا الإنجاز العلمي يجعلنا نقدم عظيم الشكر والدعاء لأسرة آل مكتوم حفظها الله تعالى التي تحب العلم وأهله، وتوازر قضايا الإسلام

والعروبة بكل تميز وإقدام ، وفي مقدمتها صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، نائب رئيس الدولة، رئيس مجلس الوزراء، حاكم دبي الذي يشيد مجتمع المعرفة، ويرعى البحث العلمي ويشجع أصحابه وطلابه.

راجين من العلي القدير أن ينفع بهذا العمل، وأن يرزقنا التوفيق والسداد، وأن يوفق إلى مزيد من العطاء على درب التميز المنشود. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصَلَّى اللهُ عَلَى النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الْخَاتَمِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

مدير إدارة البحوث

د. سيف بن راشد الجابري

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فحين يولد لأحدنا ولد ينظر إليه، إلى بضعة مخلقةٍ منه، وتملاً الفرحة
أرجاء قلبه، وقد يسرح به الخيال إلى أجواء لا يمكن وصفها، والطفل هذا
الكائن الجميل، القريب العهد بربه حقيق بهذه الفرحة، ولكنه حقيق أيضاً
أن تهب على وجه أبيه وأمه وأسرته نساءٌ الشعور بالمسؤولية تجاهه، فالله
عز وجل خلق ورزق وعلم، والأسرة مسؤولة عن هذا الخلق والرزق
والتعليم، ماذا كان موقفها وتقديرها وتديرها لهذه المسؤولية؟
وقد تحب الأسرة اليوم أن تعرف شيئاً عن رعاية الأسرة المسلمة
للأبناء في الماضي، لتستهدي بها وتسترشد في واقعها المعاصر، هذا شيء،
والشيء الآخر هو أن الناظر في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه
وسلم يجد فيهما الكثير الطيب من العناية بتربية الأبناء، وتنشئتهم النشأة
الصالحة، التي تجعل منهم قادة للمستقبل، ينتظر خيرهم، ويرجى نفعهم.
وقد تناول العلماء هذه العناية وأفاضوا في بيانها وتقديمها للأمة، ورأينا
كتباً نافعة جيدة مطولة ومختصرة أولت هذه العناية اهتمامها، واستهدفت
الحديث عنها.

وهذا الجانب يمكن أن نطلق عليه «التأصيل».

وبقي جانب آخر مهم كذلك هو الجواب على السؤال الآتي: كيف تلقت الأسرة المسلمة هذه العناية الإسلامية، وماذا فعلت لتحقيقها على أرض الواقع، وبعبارة أخرى: كيف انتقلت بـ«التأصيل» إلى «الفعل والتفعيل»؟.

من هنا كان هذا الكتاب الذي يفتح النوافذ، ويحاول الإطالة على ذلك الماضي الجميل بمنظار تاريخي.

ويقوم على تمهيد فيه إشارة موجزة إلى المنطلقات الأساسية في هذه الرعاية، ثم الملحظ الزمني فيها، ثم مفهوم الأسرة: الضيق والواسع، القريب والبعيد.

وبعده عرض صور مشرقة جذابة من هذه الرعاية تهيب القارئ لما بعدها وتشوقه.

ثم تأتي عمدة الكتاب وهي اثنان وعشرون عموداً، كل واحد منها ركن ركين في الرعاية الأسرية التي أثمرت أطيب الثمار، وتركت أجمل الآثار.

وغني عن البيان أن هذه العمدة استنبطت استنباطاً بعد حرث ليس

بالقصير في مصادر التاريخ الإسلامي، وقد يكشف التتبع عمداً أخرى،
وحسبنا الآن هذه الصفحات التي تؤسس لذلك وتُعدُّ له.

وطريقتي أن أضع للمعنى الذي استنبطته من الواقعة أو الوقائع
عنواناً، ثم أورد ما يندرج تحته من فرع أو فروع، مع الأمثلة والشواهد
التطبيقية، مرتبةً حسب وفيات أصحابها، وقد تقل هذه الأمثلة والشواهد
وقد تكثر على حسب ما تم وضع اليد عليه، وقد لا أتوسع في ذكرها هنا
لتكون مجالاً لبحث أو تأليف مستقل.

وحين سرد الأمثلة والشواهد فإننا قد لا نحتاج إلى تعليق كثير، لأنها
ناطقة بنفسها، منادية بإيجائها، واضحة من بابها، ومع ذلك فإني حاولت
ألا تفلت مني الفرصة كلما سنحت، وعلقت ما قدرته مفيداً مشبعاً لما
سردته.

وكثير مما ذكر هنا يصلح أن يكون حكاية أو قصة تُروى على الأبناء،
وفي المجالس، ويمكن أن تنطلق منها أعمال أدبية متنوعة.

وكل ذلك موثق توثيقاً دقيقاً، ليعود القارئ إن شاء الله إلى هذه
المصادر مرة أخرى فيقرأها ويستفيد منها ويستخرج ما يفتح الله به عليه
ويلهمه إياه.

أما العمدة فهي هذه، ولك أن تسميها فصولاً:

- الصلاح الذاتي.
- استحضار حقوقهم في الذهن والاهتمام بذلك.
- الدعاء والتماس الدعاء لهم.
- عرضهم على الصالحين.
- إطابة مطعمهم.
- تربيتهم وتوجيههم إلى العلم، والعمل به نصحاً وتطبيقاً.
- إحضارهم مجالس العلم وهم صغار.
- مباشرة تعليمهم بالنفس.
- تفخيم أمر العلم في قلوبهم وعقولهم ونفوسهم.
- النفقة عليهم في تعلم العلم النافع.
- متابعتهم في أمورهم الكبيرة والصغيرة.
- تعليمهم أدب الكلام.
- العمل على تكوين شخصيتهم الاجتماعية.
- ربطهم بالله سبحانه وتعالى.
- إعادتهم على سبيل الخير.
- تلبية متطلبات الفطرة والغريزة.

- برُّهم ورعاية مشاعرهم.
- تعليمهم اختيار الأصدقاء.
- تضافر جهود الأسرة والأقارب على هذه الرعاية.
- الكتابة والتأليف لهم.
- عدم إدخال الغم عليهم.
- عناية العلماء والرؤساء بأبناء المسلمين.

ثم أذكر صوراً سلبية، أحذر فيها من إضاعة الأبناء وطمس نبوغهم والغفلة عن مواهبهم. وهي - مع أنها صور سلبية - تؤكد ما سبق من وجهة أخرى.

ثم تأتي النتائج، تلخيصاً لما سبق وتذكراً به.

ثم «نداء إلى الآباء والأمهات» يضعهم أمام المطلوب وجهاً لوجه. والله أسأل أن ينفع بهذا الكتاب، وأن يجعله لبنة في بناء أبنائنا أمل الغد، وقادة المستقبل، والصبح القادم.

عبد الحكيم الأنيس

تمهيد

- المنطلقات الأساسية:

إن المنطلقات الأساسية في هذه الرعاية آيات كريمة، وأحاديث عظيمة، وكانت آية واحدة وحديث واحد كفيلين بإحداث ثورة في فكر الأمة وسلوكها، وقد يصعب - حقاً - تخيل الأثر الشامل الذي أحدثه قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوًا أَنفُسِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(١)، هذه الوقاية التي تتجسد في قول علي بن أبي طالب أحد مفسري القرآن العظام: «علموهم وأدبوهم»^(٢)، وهما كلمتان تمتدان على أفقٍ واسع من الأفكار والمفاهيم والسلوك....

وقد يصعب كذلك - حقاً - تصور الأثر الكبير الذي أحدثه قوله صلى الله عليه وسلم: «لا يسترعي الله تبارك وتعالى عبداً رعية قلت أو كثرت إلا سأله الله تبارك وتعالى عنها يوم القيامة، أقام فيهم أمر الله أم أضاعه، حتى يسأله عن أهل بيته خاصة»^(٣).

(١) من سورة التحريم، الآية: ٦.

(٢) زاد المسير (٨/ ٣١٢).

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده (٨/ ٢٦٠-٢٦١) برقم (٤٦٣٧)، وابن أبي الدنيا في كتابه العيال (١/ ٤٩٧) برقم (٣٢٥)، وهو حديث صحيح، كما في حاشية المسند.

- الملحظ الزمني:

تقوم هذه الرعاية على فلسفة التربية الإسلامية التي جعلت سن البلوغ هو الفاصل بين الطفولة وما بعدها، وعند البلوغ يبدأ التكليف، وعلى الأسرة أن تعد الطفل لسن التكليف إعداداً تاماً، حتى إذا بلغها كان عارفاً بما يراد منه وما يطلب، وما ينهى عنه وما يذم^(١)، ولكن هذه الرعاية لا تتوقف عند ذلك، بل نراها مستمرة ما استمرت الحياة بالوالدين، ومن كان في مقامهما مكانةً ومسؤولية.

- مفهوم الأسرة:

قال الزبيدي: «الأسرة من الرجل: الرهط الأذنون، وعشيرته، لأنه يتقوى بهم، كما قال الجوهري.

وقال أبو جعفر النحاس: الأسرة - بالضم - أقارب الرجل من قبل أبيه»^(٢).

وجاء في المعجم الوسيط: «الأسرة: الدرع الحصينة، وأهل الرجل وعشيرته، والجماعة يربطها أمر مشترك، والجمع: أسر»^(٣).

وإذا لوحظ معنى التقوي في إطلاق اسم الأسرة، والارتباط بأمر

(١) انظر: حقوق الطفل في القرآن (ص: ٣٧-٣٩).

(٢) تاج العروس (٦/٢٣)، وانظر مقاييس اللغة (١/١٠٧)، ولسان العرب (٤/٢٠).

(٣) المعجم الوسيط (ص: ١٧).

مشترك، فإننا نستطيع أن نوسع هذا المفهوم في باب الرعاية ليشمل كلَّ مَنْ يتقوى الأبناءً بتربيتهم ونصحهم وإرشادهم، والارتباطِ معهم بأمرٍ مشترك.

لذلك فإن مفهوم الأسرة هنا مفهوم شامل يتسع لقراءة الدم الدنيا، ثم يتمدد ليضم القرابة الوسطى والبُعدى، ثم يفرش جناحيه ليحتضن الأمة كلها باعتبارها أسرة واحدة ينتمي أفرادها كلهم إلى أب واحد وأم واحدة، ويجعلها - على هذا - مكلفة بحظها من رعاية أبناء الأمة أجمعين.

ومع ذلك فإن معظم الكلام كان على الأسرة بمعناها الرحمي القريب.

صور مشرقة من هذه الرعاية

لقد أدت هذه الرعاية إلى ظهور نبغة في العلم وهم صغار السن،
ومن هؤلاء:

- محمد بن إسماعيل البخاري (ت: ٢٥٦هـ):

قال أبو بكر بن أبي عياش الأعين: كتبنا - أي الحديث أو بعض
الفوائد الحديثية - عن محمد بن إسماعيل وهو أمرد على باب محمد بن
يوسف الفريابي.

قال ابن حجر: «كان موت الفريابي سنة اثنتي عشرة ومئتين، وكان
سن البخاري إذ ذاك نحواً من ثمانية عشر عاماً، أو دونها»^(١).

- ابن الإمام إبراهيم الحربي (ت الإمام سنة: ٢٨٥هـ):

ذكر في ترجمة الحربي أنه توفي له ولد، كان له إحدى عشرة سنة، وقد
حفظ القرآن، ولقنه أبوه من الفقه شيئاً كثيراً^(٢).

- أبو حامد الإسفراييني (ت: ٤٠٦هـ):

أفتى وهو ابن سبع عشرة سنة^(٣).

(١) هدي الساري (ص: ٤٧٨).

(٢) تاريخ بغداد (٦/ ٣٧).

(٣) المجموع (١/ ٥٧٤) «مسائل تتعلق بمسح الجرموقين».

- أبو طاهر السلفي (ت: ٥٧٦هـ):

كتبوا عنه وهو ابن سبع عشرة سنة^(١).

- ابن الإمام تاج الدين السبكي (توفي التاج سنة: ٧٧١هـ):

قال ابن العماد في حوادث سنة ٧٧٢هـ: «في محرمها درّس بدمشق بالمدرسة الأمينية تقي الدين علي بن تاج الدين السبكي، وهو ابن سبع سنين، وهذا من العجائب»^(٢).

وقال في وفيات سنة ٧٧٦هـ: «توفي علي بن عبد الوهاب بن علي

السبكي.

وَلِيَّ خطابة الجامع الأموي بعد أبيه^(٣) وله عشر سنين، ودرّس في حياة أبيه بالأمينية وعمره سبع سنين»^(٤).

- محمد ابن الإمام أحمد ابن الهائم المصري المقدسي (توفي الإمام سنة

: ٨١٥هـ):

رآه محدث حلب برهان الدين سبط ابن العجمي وعمره خمس أو ست سنوات وهو يريد أن يعرض كتاب «عمدة الأحكام» للمقدسي على البلقيني - أي يقرأه من حفظه، وهو كتاب فيه (٤٢٠) حديثاً -.

(١) سير أعلام النبلاء (٧/٢١).

(٢) شذرات الذهب (٨/٣٨٢).

(٣) أي بعد وفاة أبيه بسنوات.

(٤) شذرات الذهب (٨/٤١٨).

ولما كان عمره سبع سنوات كان يُسأل عن الآية فيجيب بما قبلها،
وما قبل قبلها، وهلم جرّاً، لشدة حفظه. وقرّظ^(١) لابن حجر العسقلاني
كتاباً، وعمره حين توفي سنة (٧٩٨هـ): «١٨» سنة^(٢)!

- أحمد ابن الحافظ شمس الدين السخاوي (توفي الحافظ
سنة ٩٠٢هـ):

أحضره أبوه وله من العمر سنة واحدة على العلماء، وأسمعه الكثير
من الكتب الكبيرة والصغيرة، وقد أتى على معظم القرآن، وكتب عن أبيه
بعض الأمالي^(٣)، وقابل معه كثيراً^(٤)، وأصيب به سنة ٨٦٤هـ، وله تسع
سنوات^(٥).

- حسين بن عمر العرضي الحلبي الشافعي (ت: ١٠٠٥هـ):

«قرأ على والده في مقدمات العلوم، من النحو والمنطق والفقهِ
والبلاغة، وارتقى إلى الملكة الكاملة في زمن يسير، وآخر ما كان يقرأ على
والده شرح الشمسية في المنطق... وكان مع صغره يقرئ الطلبة دروساً،

(١) أي قدّم بمصطلح اليوم.

(٢) انظر: المجمع المؤسس للمعجم المفهرس (٣/ ٢٥٩-٢٦٠).

(٣) أي الدروس التي تلقى إلقاءً.

(٤) أي ساعد والده بمراجعة ما يكتب، وذلك بعرض المنقول على ما نقل منه للتأكد من
عدم سقوط شيء منه، أو وقوع خطأ فيه.

(٥) انظر: الضوء اللامع (٢/ ١٢٠-١٢١).

وكان مع كونه أمرد، حسن الشكل ، يصلي إماماً بالجامع الكبير...»^(١).

- محمد خليل المرادي الدمشقي (١١٧٣-١٢٠٦هـ):

ولي فتيا الحنفية وعمره (١٩) سنة^(٢).

إن هذه النماذج - وثمَّ غيرها الكثير - تبين مدى العناية الفائقة من الأسرة بهؤلاء الأبناء، بحيث وصلوا إلى ما وصلوا إليه وهم في هذه السن المبكرة، مع ما آتاهم الله من الذكاء والاستعداد، ولعل هذا الذكاء كان يضيع لولا اهتمام الأسرة ومتابعتها وسعيها الجاد في تفتيحه واستغلاله. إننا بحاجة حقيقية إلى أن نتعلم هذا الدرس، ونطبقه على أبنائنا، وأن نهتم بهم وبتعليمهم الاهتمام الكافي، وأن نشرّكهم معنا في أعمالنا العلمية واهتماماتنا الثقافية، - كما فعل السخاوي - فإن ذلك يساعد كثيراً في نمو قدراتهم، وكثرة معلوماتهم، واستيقاظ وعيهم.

(١) معادن الذهب (ص: ٣٢٩).

(٢) انظر: الأعلام (٦/١١٨).

عَمَدُ الرِّعَايَةِ عِنْدَ الأُسْرَةِ المُسَلِمَةِ

الصلاح الذاتي

إن الصلاح الذاتي والإقبال على الله شديد الحضور في أذهان الأسرة المسلمة، وذلك رجاء التقرب منه، ورجاء نظرة رحمة ربانية تسعد الآباء والأبناء على السواء.

إن قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾^(١) كان يجلجل في الأذهان، وخرج بصور جميلة إلى العيان، وظهر أثره واضحاً جلياً:

- فعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: كان معاذ بن عفراء - وهو صحابي جليل - لا يدع شيئاً إلا تصدق به، فلما ولد له استشفعت إليه امرأته بأخواله فكلموه وقالوا له: إنك قد أعلت^(٢)، فلو جمعت لولدك. قال: أبت نفسي إلا أن أستتر بكل شيء أجده من النار.

فلما مات ترك أرضاً إلى جنب أرض لرجل - وكانت لا تساوي كثيراً بحيث قال راوي الخبر عبد الرحمن بن أبي ليلى وكان عليه ملاءة صفراء ما تساوي ثلاثة دراهم: ما تسرني الأرض بملاءتي هذه! - فامتنع ولي الصبيان - أي صبيان معاذ بن عفراء - من بيعها، فاحتاج إليها جار الأرض فاشتراها بثلاث مئة ألف^(٣).

(١) من سورة الكهف، الآية: ٨٢.

(٢) أي صرت صاحب عيال.

(٣) صفة الصفوة (١/ ٤٧٢-٤٧٣).

وقد توفي معاذ بعد مقتل عثمان بن عفان^(١).

وهكذا نظر الله إلى نيته، وحفظ أولاده بعد موته، ووسع رزقهم.

- ومن ذلك ما جاء عن الإمام سعيد بن جبير (٤٥-٩٥هـ):

قال هشام بن حسان: قال سعيد بن جبير: إني لأزيد في صلاتي من

أجل ابني هذا. قال هشام: رجاء أن يحفظ فيه^(٢).

- وقال التابعي الجليل مجاهد بن جبر تلميذ ابن عباس (ت: ١٠٢هـ):

«إن الله عز وجل ليصلح بصلاح العبد ولده، وولد ولده»^(٣).

- وذكر ابن الأبار في ترجمة الإمام علي بن محمد بن علي البلنسي

الأصيلي (ت: ٥٦٤هـ).

أنه «كان يتصدق على الأراامل واليتامى بما له من دقيق وأدم وغير

ذلك، فقالت زوجته: إنك لتسعى بهذا العمل في فقر أبناءك، فقال لها: لا

والله بل أنا شيخ طمّاع أسعى في غناهم»^(٤).

هذه صورٌ جميلةٌ - والبحث يكشف المزيد - فيها تطبيقٌ عملي لقوله

تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾^(٥) فتعلم منها أن نزداد صلاحاً لنسعد،

(١) صفة الصفوة (١/٤٧٤).

(٢) حلية الأولياء (٤/٢٧٩)، وتهذيب الكمال (١٠/٣٦٦).

(٣) صفة الصفوة (٢/٢٠٨).

(٤) التكملة لكتاب الصلة (٣/٢٠٣).

(٥) من سورة الكهف، الآية: ٨٢.

ونُسعد أبناءنا وذريتنا، والله عز وجل لا يضيع أجر مَنْ أحسن عملاً.
إن صلاح الآباء يعود بالخير العميم على الأبناء، وهذه الآية شاهد
واضح على ما نقول.

- ويقول الرجل الصالح محمد بن المنكدر المدني (ت: ١٣٠ هـ):
«إن الله تعالى يحفظ المؤمن في ولده وولد ولده، ويحفظه في دويرته وفي
دويرات حوله، فما يزالون في حفظٍ وعافيةٍ ما كان بين أظهرهم»^(١).
فأثر الصلاح متعدد، وكذلك أثر المعصية:

- يقول الإمام الفضيل بن عياض (ت: ١٨٧ هـ): «إني لأعصي الله
فأعرف ذلك في خُلُق حماري وخادمي»^(٢).

وحين يصلح الأب والأم نفسيهما يتعلم أبنائهما منهما:
- يقول أبو هاشم الزاهد - وهو من قدماء زهاد بغداد - : «أخذُ المرءِ
نفسه بحسن الأدب تأديب أهله»^(٣).

- ويقول الفضيل بن عياض: رأى مالك بن دينار رجلاً يسيء صلاته
فقال: ما أرحمني لعياله؟ فقيل له: يسيء صلاته وترحم عياله؟ فقال: إنه
كبيرهم ومنه يتعلمون»^(٤).

(١) صفة الصفوة (٢/١٤٢).

(٢) صفة الصفوة (٢/٢٣٨).

(٣) صفة الصفوة (٢/٢٠٦).

(٤) صفة الصفوة (٣/٢٨٧).

- ومن فوائد الصلاح الذاتي الذي عاد خيره على الأبناء هذا الخبر العجيب الذي وقع للتابعي الجليل ربعي بن حراش الكوفي (ت: ١٠١ هـ أو بعدها).

فقد جاء عنه أنه لم يكذب قط، وكان له ابنان عاصيان على الحجاج بن يوسف الثقفي، فقيل للحجاج: إن أباهما لم يكذب كذبة قط، لو أرسلت إليه فسألته عنهما.

[فأرسل إليه فسأله] قال: أين ابناك؟

قال: هما في البيت!

فقال الحجاج: قد عفونا عنهما بصدق^(١).

- ومن فوائد الصلاح كذلك حسن العلاقة بين الأب وأبنائه، فعن مقاتل بن محمد بن بنان العتكي قال: حضرت مع أبي وأخي عند أبي إسحاق - يعني إبراهيم الحربي الإمام البغدادي الجليل المتوفى سنة (٢٨٥ هـ) - فقال إبراهيم لأبي: هؤلاء أولادك؟

قال: نعم. قال: احذر، لا يرونك حيث هناك الله فتسقط من أعينهم^(٢).

فالاستقامة تجعل الوالد في أعين أبنائه كبيراً مهيباً، محترماً محبوباً، وبذلك تكون العلاقة على أحسن ما يكون.

(١) صفة الصفوة (٣/٣٦).

(٢) صفة الصفوة (٢/٤٠٩).

استحضار حقوقهم في الذهن والاهتمام بذلك

إن هاجس العناية بالأبناء كان يلازم الوالدين، وأضرب على ذلك
مثالاً بالصحابي قيس بن عاصم رضي الله عنه:

ذكر ابن الجوزي أن الصلصال بن الدهمس قدم مع بني تميم على
رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن النبي صلى الله عليه وسلم أوصاهم
بشيء، فقال قيس بن عاصم: وددت لو كان هذا الكلام شعراً نعلمه
أولادنا. فقال الصلصال: أنا أنظمه يا رسول الله، فأنشده أبياتاً.

والأبيات هي كما جاء في أمالي ابن دريد:

تجنب خليطاً من مقالك إنما

قرين الفتى في القبر ما كان يفعلُ

ولا بُدَّ بعد الموت من أن تعده

ليوم ينادى المرء فيه فيقبلُ

وإن كنت مشغولاً بشيء فلا تكن

بغير الذي يرضى به الله تشغلُ

ولن يصحبَ الإنسانَ من قبل موته

ومن بعده إلا الذي كان يعملُ

ألا إنما الإنسان ضيف لأهله

يقيم قليلاً بينهم ثم يرحل^(١)

وكان لقيس بن عاصم - كما يقول ابن حبان - : ثلاثة وثلاثون ولداً،
وقد توفي نحو سنة عشرين للهجرة^(٢).

إن قول قيس - رضي الله عنه - : «وددت لو كان هذا الكلام شعراً
نعلمه أولادنا» يحمل في طياته درساً بليغاً للأسرة التي تعقل معنى
وجودها، وتدرك أبعاد مسؤوليتها.

إن أولادنا أمانة كبرى في أعناقنا ويجب أن نستشعر ثقل هذه الأمانة
دائماً، ولا سيما حين يكون هناك شيء نافع يمكن أن يفيد منه أبناؤنا في
حياتهم.

(١) انظر: الإصابة (٢/١٩٣).

(٢) انظر: الإصابة (٣/٢٥٣).

الدعاء والتماس الدعاء لهم

كان التوجه إلى الله بالدعاء للأبناء سمة بارزة في رعاية الأسرة المسلمة وقت الحمل، وبعد الولادة، وحين النشأة، ويستمر مدى الحياة، وقبل أن أذكر الشواهد على ذلك أقول: إن الدعاء للأبناء كان يتم حتى قبل الحمل بهم:

- قال السخاوي في ترجمة الإمام الكبير شمس الدين محمد ابن الجزري (ت: ٨٣٣هـ).

«كان أبوه تاجراً فمكث أربعين سنة لا يولد له، ثم حج فشرّب ماء زمزم بنية ولد عالم»^(١).

واستجاب الله له، ورزقه هذا الإمام الكبير.

- وقال الشيخ عبد القادر العيدروس في ترجمة السيد الشريف البارع في العلم والعمل والجدود الشيخ الحسين بن عبد الله العيدروس (٨٦١هـ-٩١٧هـ):

«رُوي عن الشيخ عبد الله العيدروس أنه كان يقول: كنت كثير الدعاء في سجودي أن يرزقني الله ولداً عالماً سنياً. وأرجو أن يكون هو الحسين»^(٢).

(١) الضوء اللامع (٩/ ٢٥٥).

(٢) النور السافر (ص: ١٤٠).

الدعاء وقت الحمل:

- وممن حظي بذلك الإمام الجليل العابد الزاهد أحد أئمة الدنيا أبو الوليد حسان بن محمد النيسابوري (ت: ٣٤٩هـ).

قال الحاكم عنه: كان إمام أهل الحديث بخراسان، وأزهد مَنْ رأيت من العلماء، وأعبدهم، وأكثرهم تقشفاً، ولزوماً لمدرسته وبيته، وله كتاب «المستخرج على صحيح مسلم».

وقال: وسمعتَه في مرضه الذي مات فيه يقول: قالت لي والدتي: كنت حاملاً بك، وكان للعباس بن حمزة مجلس، فاستأذنت أباك أن أحضر مجلسه، في أيام العشر، فأذن لي، فلما كان في آخر المجلس قال العباس بن حمزة: قوموا، فقاموا، وقمت منهم، فأخذ العباس يدعو، فقلت: اللهم هب لي ابناً عالماً، فرجعت إلى المنزل، فبت تلك الليلة، فرأيت فيما يرى النائم كأن رجلاً أتاني، فقال: أبشري، فإن الله قد استجاب دعوتك، ووهب لك ولداً ذكراً، وجعله عالماً، ويعيش كما عاش أبوك.

قالت: وكان أبي عاش اثنتين وسبعين سنة.

قال الأستاذ أبو الوليد: وهذه قد تمت لي اثنتان وسبعون سنة.

قال الحاكم: فعاش الأستاذ بعد الحكاية أربعة أيام^(١).

(١) طبقات الشافعية الكبرى (٣/ ٢٢٦-٢٢٧).

الدعاء بُعيد الولادة:

وقد حظي بذلك إبراهيم بن أدهم (ت: ١٦٢هـ).

قال الفضل بن موسى: حج أدهم بأمر إبراهيم وهي حبلى، فولدت له إبراهيم بن أدهم بمكة، فجعلت تطوف على الحلق في المسجد وتقول: ادعوا لابني أن يجعله الله عبداً صالحاً^(١).

وقال إبراهيم بن شماس: سمعت إبراهيم بن أدهم يقول:

كان أدهم رجلاً صالحاً، فولد إبراهيم بمكة، فرفعه في خرقة، وجعل يتتبع أولئك العباد والزهاد ويقول: ادعوا الله له. فيرى أنه قد استجيب لبعضهم فيه^(٢).

ومن مجموع الخبرين نستنتج أن الأب والأم حملاه معاً، وطافا به على الصالحين في مكة.

وقد ادخر الله تلك الدعوات لإبراهيم إلى أن جاء إبانها وحينها، ومع أنه نشأ في طريق آخر إلا أن الدعوات أدركته ورجعت به إلى مولاه، وحديثه معروف، في بدء توبته وتوجهه حتى صار إلى ما صار إليه.

(١) تاريخ مدينة دمشق (٦/٢٨٣)، وتاريخ الإسلام (١٠/٤٤-٤٥)، والوفيات (١/٥٩)، و(٥/٢٠٩-٢١٠).

(٢) حلية الأولياء (٧/٣٧١).

- وقال القاضي عياض في ترجمة الإمام أبي بكر محمد بن وسيم الطليطي (ت: ٣٥٢):

«كان أعمى، وكان بصيراً بالحديث، حافظاً للفقهاء، ذا حظ من علم اللغة والنحو والشعر والتفسير والفرائض والحساب والعبارة، شاعراً ذكياً، وكانوا يرون ما فيه من الذكاء ببركة دعاء أبيه، وكان صالحاً.

وقيل: لما عمي بعد مولده بيسير جمع أبوه أهل الصلاح والزهد، وصلوا الليل كله، فلما أصبح أحضر هذا المولود، ودعوا أن يجعل الله نور بصره في قلبه، فأجيبت دعوتهم»^(١).

وأظن أن كل قارئ يقرأ هذا الخبر يستشعر الحزن الذي نزل بقلب وسيم والد محمد، ولكنه لم يقف مع الحزن، وعرف الطريق الصحيح إلى نفع ابنه الذي قدر الله عليه فقد البصر، فكان منه ما كان، ونعم ما فعل.

- وجاء في ترجمة الإمام الكبير ابن دقيق العيد (٦٢٥-٧٠٢هـ) هذا الخبر الطريف، وهو أن والده كان «متوجهاً من «قوص» إلى «مكة» للحج في البحر، فولد بقرب مدينة «ينبع» من أرض الحجاز، وطاف به والده على يديه، ودعا له بالعلم والعمل. فكان يقول: «استجيب لي»^(٢).

(١) ترتيب المدارك (٦/١٧٥)، وانظر ترجمة والده في (٥/٢٢٩). ط المغرب.

(٢) العقد المذهب (ص: ١٧٥).

ومن يقرأ سيرة الإمام ابن دقيق العيد، ويطلع على مكانته السامية في العلم والعمل يوقن باستجابة ذلك الدعاء.

الدعاء حين النشأة:

- جاء في ترجمة الإمام النحوي اللغوي يعقوب بن إسحاق السكيت صاحب كتاب «إصلاح المنطق» (ت: ٢٤٣هـ أو بعدها):

«كان يعقوب يؤدب مع أبيه بمدينة السلام في درب القنطرة صبيان العامة، حتى احتاج إلى الكسب، فجعل يتعلم النحو.

وحكي عن أبيه أنه حج، فطاف بالبيت، وسعى بين الصفا والمروة، وسأل الله تعالى أن يعلم ولده النحو، فتعلم النحو واللغة»^(١).

- وروى غنجار في «تاريخ بخارى» واللالكائي في «شرح السنة» في باب كرامات الأولياء أن محمد بن إسماعيل [البخاري] ذهب عيناه في صغره، فرأت والدته الخليل إبراهيم في المنام، فقال لها: يا هذه، قد ردَّ الله على ابنك بصره بكثرة دعائك.

قال: فأصبح، وقد ردَّ الله عليه بصره^(٢).

(١) إنباه الرواة (٤/ ٥٧).

(٢) هدي الساري (ص: ٤٧٨).

- وفي تعليم المتعلم: كان أحمد بن نصر بن صالح والد الشيخ الأجل شمس الأئمة الحلواني فقيراً يبيع الحلواء، وكان يعطي الفقهاء من الحلواء ويقول: ادعوا لابني. فبركة جوده واعتقاده وشفقته وتضرعه لله نال ابنه ما نال^(١).

والحلواني أصبح إمام أهل الرأي في وقته، له من الكتب: المبسوط، والنوادر، وذكره النخشبي في «معجم شيوخه» فقال: شيخ عالم بأنواع العلوم، معظّم للحديث وأهله، وقد توفي سنة (٤٤٨هـ)^(٢).

- وجاء في ترجمة الإمام زين الدين ابن نُجبة الأنصاري (ت: ٥٩٩هـ) أنه سعد بدعاء والدته^(٣). وإذا أردت أن تعرف ما وراء هذا القول فاقراً سيرة حياته، وكان صلاح الدين الأيوبي يسميه عمرو بن العاص، ويعمل برأيه، وكان يحضر مجلسه هو وأولاده، وكان له جاه عظيم، وحرمة زائدة. ولما فتح صلاح الدين القدس كان معه، وتكلم أول جمعة أقيمت فيه على كرسي الوعظ، وكان يوماً مشهوداً.

- وقال السخاوي في ترجمة أحمد بن علي بن مفلح، الشهاب

الزبيدي (ت: ٨٦٠هـ):

(١) الفوائد البهية (ص: ٩٥-٩٧).

(٢) المصدر السابق.

(٣) الذيل على طبقات الحنابلة (١/ ٤٤٠).

«كان رجلاً صالحاً عابداً زاهداً، ملازماً لبيته لا يخرج منه إلا للجمعة، ويتقوت هو وعياله من نسخ المصاحف، وللناس فيه اعتقاد زائد سيما في آخر عمره بحيث اشتهر ذكره وبعد صيته. وكان يحكي أن والده سأل إسماعيل الجبرتي في الدعاء له وهو طفل، فلما رآه قال: «هذا وارث ولآخرته حارث». سمعه من صاحب الترجمة الكمال موسى الدوالي، وقال: إنه كان كما تفرس فيه الشيخ، فإنه كانت أمارات الخير والفلاح عليه من صغره ظاهرة، ولم يزل على طريقته المرضية صلاحاً وزهداً وورعاً ومحاسن حتى مات...»^(١).

- وسيأتي معنا في «النفقة عليهم في تعلم العلم النافع» خبر دعاء أم الشيخ محمود الأنطاكي له.

- وجاء في ترجمة العلامة الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود (١٣٢٩ - ١٤١٧هـ) شيخ قطر وقاضيتها وعالمها:

«ولد الشيخ في حوطة بني تميم جنوب نجد... وقد نشأ في كنف أمه الصالحة، حيث مات أبوه ولما يزل صغيراً، فرعته وحاطته بعنايتها، ورأت أن أعظم أسباب الفلاح اتصالٌ وليدها بالعلم فأكثرت من الدعاء الضارع أن يرزق الله تبارك وتعالى ابنها العلم النافع، والعمل الصالح،

(١) الضوء اللامع (٢/١٤٦).

والمال المبارك الوفير، والذرية الصالحة، فنشأ الشيخ محفوظاً بهذا الدعاء الذي رأى أثر استجابته لا ثحاً في عمره من بعد^(١).

إن هذه الأخبار تعلمنا أن نحسن ربط أبنائنا بربهم، فنكثر من الدعاء لهم في أحوالهم وأطوارهم كلها.

إن دعوة الأب أو الأم للأبناء وهي تنطلق من قلب شفيق وذهن حاضر، وإقبال شديد وتوجه خاشع، تحترق السبع الطباق، وتفتح لهم الأبواب الموصدة، وتمهد لهم الطرق الشائكة، وتحفظهم في سائر منعطفات حياتهم.

فلندع لأبنائنا ولا سيما إذا أكرمنا الله فقمنا في السحر وتفقدناهم وهم يغطون في نومهم، فلنرفع أيدينا إلى السماء ونقول: يا رب أبنائنا^(٢).

(١) ترجمة الشيخ في صدر مجموعة رسائله (٩/١).

(٢) وقد نجد غير هذا، كما جاء عن الزاهد محمد بن مسلم القنطري (ت: ٢٦٠هـ) أنه كان له ابن أخت حدت، فراه يلعب بالطيور، فدعا الله أن يميته، فما أمسى يومه ذلك إلا ميتاً! كما في صفة الصفوة (٣٩١/٢)

وكما جاء عن ابن نجية الأنصاري (ت: ٥٩٩هـ) أنه دعا على ابنه فمات، والخبر في ترجمته في الذيل على طبقات الحنابلة! وظاهر الخبرين مخالف للسنة.

عرضهم على الصالحين

كان من عادة الأسرة المسلمة عرض الأبناء على الصالحين التماساً لدعواتهم، وطلباً لنصحهم وإرشادهم وتوجيههم، وربطاً لهم بهم:

- قال الإمام إبراهيم الحربي (ت: ٢٨٥هـ):

حملني أبي إلى بشر بن الحارث [الحافي] فقال: يا أبا نصر ابني هذا مشتهر بكتابة الحديث والعلم. فقال لي: يا بني، هذا العلم ينبغي أن يُعمل به، فإن لم يعمل به كله فمن كل مئتين خمسة، مثل زكاة الدراهم. وقال له أبي: أبا نصر تدعو له؟ فقال: دعاؤك له أبلغ، دعاء الوالد لولده كدعاء النبي لأُمَّته. قال إبراهيم: فاستحليت كلامه فاستحسنته...^(١)

- ومن جرى له في ذلك خبرٌ معجبٌ الشيخ الكبير المسند حنبل بن عبد الله بن فرج البغدادي (٥١٠-٦٠٤هـ) راوي مسند الإمام أحمد بن حنبل كله.

يقول حنبل: لما وُلدت مضى أبي إلى الشيخ عبد القادر الجيلي، وقال له: قد ولد لي ابن ما أسميه؟ قال: سمّه حنبل، وإذا كَبِرَ سَمَّعُهُ «مسند» أحمد بن حنبل.

قال: فسَماني كما أمره، فلما كبرت سَمَّعني «المسند» وكان هذا من بركة

(١) حلية الأولياء (٨/٣٤٧-٣٤٨).

مشورة الشيخ.

قال ابن الأنطاقي: سمعت منه جميع المسند ببغداد، أكثره بقراءتي عليه في نيّف وعشرين مجلساً. ولما فرغت أخذت أرغبه في السفر إلى الشام، فقلت: يحصل لك مال، ويقبل عليك وجوه الناس ورؤساهم. فقال: دعني، فوالله ما أسافر لأجلهم، ولا لما يحصل منهم، وإنما أسافر خدمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، أروي أحاديثه في بلد لا تروى فيه.

قال ابن الأنطاقي: اجتمع له جماعة لا نعلمها اجتمعت في مجلس سماع قبل هذا بدمشق، بل لم يجتمع مثلها لأحد ممن روى المسند.

قال الذهبي: أسمعته مرةً بالبلد، ومرة بالجامع المظفري^(١).

- وممن عرّض على الصالحين الفقيه العالم العارف الشيخ محمد بن عمر بن أحمد بن حشيب (ت: ٧١٨هـ).

فقد ذهب به والده إلى الشيخ أبي الغيث بن جميل^(٢).

- وكان الشيخ أحمد الزاهد (ت: ٨٢٠هـ) ممن يُعرض عليه الأطفال، وكان يدعو لهم دعوة غريبة نابعة من حاله هو:

قال المناوي في ترجمته: «وكان إذا أتاه رجل بولده الطفل قال: اللهم

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢١/ ٤٣١). والجامع المظفري هو جامع الحنابلة المعروف.

(٢) انظر الخبر في النور السافر (ص: ٥٩٢).

لا تجعل له كلمة ولا حرمة في هذه الدار»^(١) أي لا تجعل له مكانة في الدنيا خشية الاغترار بها! وهذه - كما قلت - دعوة نابعة من حاله هو، وكان من الممكن أن يدعو له أن يحفظه الله من الاغترار بالدنيا إن فتحت عليه.

- وعَرَضَ الإمام الشيخ رضي الدين محمد الغزي (٨٦٢-٩٣٥هـ):

ابنه بدر الدين محمداً (٩٠٤-٩٨٤هـ) «على الشيخ العارف بالله أبي الفتح محمد بن محمد بن علي الإسكندري، ثم المزي العوفي الشافعي ... وأجاز له بكل ما يجوز له، وعنه روايته، وهو دون الستين»^(٢).

إن العرض على الصالحين - إذ يحقق الدعاء للأبناء، ويحصل فيه سماع توجيههم وإرشادهم - يحقق كذلك ربطهم بهم، وإقامة علاقة بينهم، وهذا مهم جداً في حياة الأبناء حين يكبرون ويبدأون بفهم أبعاد هذه العلاقة، وتذوق أثرها، ولن يستفيدوا منها وحدهم، بل تستفيد أسرهم ومجتمعهم، وكل مَنْ حولهم.

إن قرة عيون الآباء أن يروا أبناءهم وقد نشأوا صالحين بارين موفقين إلى الخيرات.

وأظن أن في رؤية الوالدين أبناءهما من حولهما وهم يسارعون في خدمتهما وإكرامهما وإدخال السرور على قلوبهما سعادة ما بعدها سعادة.

(١) الكواكب الدرية (٣/١٥١).

(٢) الكواكب السائرة (٣/٤).

والعكس بالعكس ففي رؤية الأبناء العاقين المزعجين المتمردين
شقاء ما بعده شقاء.

وفي المجتمع صور من أولئك وهؤلاء، والله نسأل أن يجعلنا بارين
مبرورين.

وهذا الملحظ - وهو العرض على الصالحين، واكتساب دعواتهم -
مهم جداً في التربية، ولا سيما إذا امتد العمر بهؤلاء الصالحين وأدركهم
مَنْ عرض عليهم.

إطابة مطعمهم

إن إطابة مطعم الذرية من أهم بنود الرعاية التي ركزت عليها الأسرة المسلمة، وأذكر من هذا بعض الأخبار:

- كان الخليفة عمر بن عبد العزيز يقسم تفاح الفيء، فتناول ابن له صغير تفاحةً، فانتزعها من فيه، فأوجعه، فسعى إلى أمه مستعبراً، فأرسلت إلى السوق فاشتريت له تفاحاً.

فلما رجع عمر وجد ريح التفاح، فقال: يا فاطمة هل أتيت شيئاً من هذا الفيء؟ قالت: لا. وقصت عليه القصة، فقال: والله لقد انتزعتها من ابني لكأنها نزعته من قلبي، ولكن كرهت أن أضيع نصيبي من الله عز وجل بتفاحةٍ من فيء المسلمين^(١).

وهو في الوقت نفسه حفظ ابنه من أن يأكل شيئاً فيه شبهة.

وكان عمر ممن حفظ الله أصوله، وفروعه، قال ابن شوذب:

لما أراد عبد العزيز بن مروان أن يتزوج أم عمر بن عبد العزيز قال لقيمه: اجمع لي أربع مئة دينار من طيب مالي، فإني أريد أتزوج إلى أهل بيت لهم صلاح، فتزوج أم عمر^(٢).

(١) صفة الصفوة (٢/ ١٢٠).

(٢) صفة الصفوة (٢/ ١١٣).

- وقال ابن حجر عن إسماعيل البخاري والد محمد:

«ذكره ولده في التاريخ الكبير^(١) فقال: إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة.

سمع من مالك وحماد، وصافح ابن المبارك^(٢).

وسياتي بعد قليل قول إسماعيل عند موته أنه لا يعلم في ماله حراماً

ولا شبهة.

ومات إسماعيل ومحمد صغير، فنشأ في حجر أمه..»^(٣).

- وقال الإمام السبكي في ترجمة إمام الحرمين الجويني (ت: ٤٧٨ هـ):

«اعتنى به والده من صغره، لا بل من قبل مولده، وذلك أن أباه اكتسب

من عمل يده مالاً خالصاً من الشبهة اتصل به إلى والدته، فلما ولدته له

حرص على أن لا يطعمه ما فيه شبهة، فلم يمازج باطنه إلا الحلال الخالص،

حتى يحكى أنه تلجلج مرة في مجلس مناظرة، فقيل له: يا إمام ما هذا الذي

لم يعهد منك؟

(١) التاريخ الكبير (١/٣٤٣).

(٢) إن ذكر المتقدمين لأبائهم يختلف عن طريق المتأخرين، فانظر إلى أسلوب البخاري،

واضمم إلى ذلك أسلوب الإمام أحمد بن فارس في معجم «مقاييس اللغة» (١/٥).

وهذا الموضوع جدير بالتتبع والبحث والكتابة.

(٣) هدي الساري (ص: ٤٧٧).

فقال: ما أراها إلا آثار بقايا المصّة.

قيل: وما نبأ هذه المصّة؟

قال: إن أمي اشتغلت في طعام تطبخه لأبي، وأنا رضيع، فبكيت وكانت عندنا جارية مرضعة لجيراننا فأرضعتني مصّة أو مصتين. ودخل والدي فأنكر ذلك وقال: هذه الجارية ليست ملكاً لنا، وليس لها أن تتصرف في لبنها، وأصحابها لم يأذنوا في ذلك!

وقلبي وفوّعني حتى لم يدع في باطني شيئاً إلا أخرجه، وهذه اللجلجة من بقايا تلك الآثار»^(١).

- وإذا لم تجد الأسرة المال حضّت أبناءها على الصبر والرضى والقناعة، وأمّلتهم خيراً، وجنبتهم النظرات الخاطئة، والمسالك المحرمة: قال العلامة الشيخ أبو الخير الميداني رئيس رابطة العلماء بدمشق (١٢٩٣-١٣٨٠هـ):

(١) طبقات الشافعية الكبرى (٥/١٦٨-١٦٩)، وفي العقد المذهب في طبقات حملة المذهب (ص: ١٠٢): «وقيل: إن والده كان في أول أمره ينسخ بالأجرة، وأنه جمع من ذلك ما اشترى به جارية صالحة، ولم يزل يطعمها من كسب يده حتى حملت به...».

وانظر: فيض القدير (٤/٥٥).

«درست أولاً بمدرسة الشيخ عيد السفرجلاني بالمدرسة الجقمقية بالكلاسة، وكانت أمي تدخر المال البسيط لكي أتم دراستي، وكانت عادة هذه المدرسة أن يبقى التلميذ من الصباح إلى قبل الغروب، ويتناول التلاميذ طعام الغداء في المدرسة. فكان أولاد الأغنياء يحضر لهم آباؤهم أنواع الأطعمة الفاخرة، فكنت أشتهي تلك المآكل فأرجع إلى أمي مساءً وأخبرها بما يأكله زملائي، فتشفق وتتألم ولا تستطيع أن تقدم لي إلا الخبز، وتقول لي: يا بني ارض بما قسم الله لك، فإن الله سيكرمك ويعوضك خيراً. فامتثلت ورضيت، بعدها كنت أنظر إلى التلاميذ وهم يأكلون أنواع الأطعمة فأتذكر كلام أمي، فإذا اشتهيت نوعاً منها وجدت طعمه في فمي، وأشعر أيضاً بدسومته»^(١).

إن حرص الأسرة المسلمة على تغذية الأبناء بالحلال يضمن لها أن ينشؤوا صالحين مصلحين، بارين مبرورين، والعكس بالعكس، ولعل كثيراً من ويلات العقوق من آثار الحرام الذي سكن في مفاصل الجسد وطياته.

نسأل الله أن يكرمنا ويكرم أبناءنا بالحلال والتحري عنه، والاستشفاء

(١) الإمام الرباني العلامة الشيخ أبو الخير الميداني بقلم الأستاذ محمد مطيع الحافظ (ص: ٦).

به، والانبعاث إلى الطاعات بباعثه ومحركه وأثره.

ومن المشهور قول العلماء: مَنْ أكل الحلال أطاع الله شاء أو أبى، ومن أكل الحرام عصى الله شاء أو أبى.

فلتنتبه الأسرة المسلمة إلى هذا الأمر، ولتحرص على إطعام أبنائها الحلال الخالص، بتحرٍ واهتمام، فإن لذلك آثاراً كبيرة فيهم، في حاضرهم ومستقبلهم، وفي علاقتهم برههم وبوالديهم.

تربيتهم وتوجيههم إلى العلم، والعمل به نصحاء وتطبيقاً

قال الإمام الكبير المؤرخ الجليل المرابي الواعي كمال الدين ابن العديم (ت: ٦٦٠هـ): «ينبغي للوالد أن لا يسهو عن تأديب ولده، ويحسن عنده الحسن، ويقبّح عنده القبيح، ويحثه على المكارم، وعلى تعلم العلم والأدب، ويضربه على ذلك»^(١).

ولقد ضربت الأسرة المسلمة في هذا الجانب أروع الأمثال، وحسبنا أن نذكر هذه الإضاءات الدالة المعبرة مما ورد في تراجم هؤلاء العلماء:

- عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي (٨٨-١٥٧هـ):

هو الإمام الفقيه المجتهد الأديب الكبير.

قال الوليد بن مزيد: ولد ببعلبك، ورُبِّيَ يتيماً فقيراً في حجر أمه، تعجز الملوك أن تؤدب أولادها أدبه في نفسه.

ما سُمِعَتْ منه كلمةٌ فاضلةٌ إلا احتاج مُسْتَمِعُهَا إلى إثباتها عنه، ولا رأيتُه ضاحكاً يقهقه، ولقد كان إذا أخذ في ذكر المعاد أقول: ترى في المجلس قلبٌ لم يبك!

(١) الدراري في ذكر الدراري (ص: ٤٨).

وهو القائل: خمسة كان عليها الصحابة والتابعون: لزوم الجماعة،
واتباع السنة، وعمارة المساجد، والتلاوة، والجهاد.

والقائل: عليك بأثار مَنْ سلف وإن رفضك الناس^(١).

وقد أطلت بعض الشيء بنقل هذه الكلمات لبيان أثر هذه التربية
العظيمة.

- سفيان بن سعيد الثوري (ت: ١٦١هـ):

قالت له أمه: يا بني اطلب العلم وأنا أكفيك بمغزلي^(٢).

ومن ثم قال هو: ينبغي للرجل أن يكره ولده على العلم فإنه مسؤول
عنه^(٣).

وقالت له: يا بني إذا كتبت عشرة أحرف فانظر هل ترى في نفسك

(١) تذكرة الحفاظ (١/١٧٨-١٨٠).

(٢) صفة الصفوة (٣/١٨٩)، وسير أعلام النبلاء (٧/٢٧٣).

(٣) الدراري في ذكر الدراري (ص: ٤٨)، وسير أعلام النبلاء (٧/٢٧٣). وفي شرف
أصحاب الحديث (ص: ١٢٧): «... أن يكره ولده على طلب الحديث».
ورويت الكلمة عن عبد الله بن داود في عدد من المصادر منها شرف أصحاب
الحديث (ص: ٦٦) ولكن صرح - كما في حلية الأولياء (٦/٣٦٥) - أنه سمعها
من الثوري. وجاء لفظه في بعض المواضع كشرح أصحاب الحديث (ص: ٦٦)
وتاريخ دمشق (٢٨/٢٥) وجزء فيه أحاديث عوال وحكايات وأشعار للضياء
المقدسي (ص: ٢٩-٣٠): «نول الرجل أن...» ونول بمعنى ينبغي، قال في
القاموس (ص: ١٣٧٧): «نولك أن تفعل كذا ونوالك ومنوالك: أي ينبغي لك».

زيادة في مشيك وحلمك ووقارك؟ فإن لم يزدك فاعلم أنه لا يضررك ولا ينفعك^(١).

- قاضي مكة: محمد بن عبد الرحمن بن هشام (ت: ١٦٩هـ):

قالت له أمه: إنك خلقت خلقة لا تصلح معها لمعاشرة الفتيان، فعليك بالدين والعلم فإنهما يتمان النقائص، ويرفعان الخسائس.
قال: فنفعني الله بما قالت، وتعلمت العلم حتى وليت القضاء.
قال الصفدي: «وكان قصيراً دميماً جداً، وعنقه داخلاً في بدنه، ومنكباه خارجان كأنهما رحيان، وكان الخضم إذا جلس بين يديه لا يزال يردد إلى أن يقوم!»^(٢).

- الإمام مالك بن أنس (ت: ١٧٩هـ):

كانت أمه تقول له بعد أن تلبسه العمامة وتهيئه: اذهب إلى ربيعة فتعلم من أدبه قبل علمه^(٣).

- الإمام الحافظ الصادق الصالح، محدث أصبهان: أبو محمد عبد الله بن

محمد بن جعفر بن حيان المعروف بأبي الشيخ، صاحب التصانيف (٢٧٤-
٣٦٩هـ):

(١) صفة الصفوة (٣/ ١٨٩).

(٢) الوافي بالوفيات (٣/ ٢٢٤).

(٣) الإمام مالك بن أنس للدقر (ص: ٤٧)، والديباج المذهب (١/ ٢٠).

قال الذهبي في ترجمته: «طلب الحديث من الصغر، اعتنى به الجد، فسمع من جدّه محمود بن الفرّج الزاهد» وآخرين^(١).

- الشيخ أبو بكر الوراق: محمد بن إسماعيل بن العباس البغدادي المستملي (ت: ٣٧٨هـ):

قال ابن العماد: «اعتنى به أبوه، وأسمعه من الحسن بن الطيب البلخي، وعمر بن أبي غيلان، وطبقتهما، وعاش خمساً وثمانين سنة، وكان صاحب حديث، ثقة»^(٢).

- الحافظ الحاكم محمد بن عبد الله النيسابوري المعروف بابن البيع (٣٢١-٤٠٥هـ):

قال الصفدي في ترجمته: «طلب العلم من الصغر باعتناء أبيه، وأول سماعه سنة ثلاثين (٣٣٠)»^(٣).

- الإمام الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (٣٣٦-٤٣٠هـ) صاحب كتاب «حلية الأولياء»:

قال ابن العماد في ترجمته: «اعتنى به أبوه، وسمّعه في سنة أربع وأربعين وثلاث مئة، وبعدها، استجاز له خيثة الأطرابلسي، والأصم

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (١٦/ ٢٧٧).

(٢) شذرات الذهب (٤/ ٤١٤).

(٣) الوافي بالوفيات (٣/ ٣٢٠).

وطبقتها، وتفرد في الدنيا بعلو الإسناد، مع الحفظ والاستبحار من الحديث وعلومه»^(١).

- أبو علي الحسن بن أحمد بن الحسن ابن مهرة الحداد الأصبهاني (٤١٩هـ) -
: (٥١٥هـ)

قال أبو سعد السمعاني في ترجمته - وهو مجاز منه - : «كان شيخاً عالماً، ثقة، صدوقاً، من أهل القرآن، والعلم، والدين، قرأ القرآن بروايات، وعمّر العمر الطويل حتى حدّث بالكثير، ورحل الناس إليه، ورأى من العز ما لم ير أحد في عصره، وكان خيراً، ديناً، صالحاً»^(٢).

ثم قال: «رحل إليه الناس من الأمصار، وكثر عليه طلبه الحديث من الأقطار، كتب إلي الإجازة بجميع مسموعاته مرتين، وخطه عندي بذلك، وهو أجل شيخ أجاز لي ممن علا سنده وكثرت رواياته، وحدثني عنه جماعة كثيرة بخراسان والعراق وما وراء النهر»^(٣).

وكان وراءه أبو حريص صالح، يقول أبو سعد: «وكان والده إذا خرج إلى حانوته ليعمل في الحديد يأخذ بيده ويدفعه في مسجد أبي نعيم الحافظ ليسمع ما يقرأ عليه، فأكثر عنه حتى صار بحيث لا يفوته شيء عنه

(١) شذرات الذهب (١٤٩/٥).

(٢) المنتخب من معجم شيوخ أبي سعد (٥٧٨/١).

(٣) السابق (٥٨٠/١).

إلا ما شاء الله»^(١).

ثم ذكر ثبت مسموعاته، وهي كثيرة جداً، منها (٦٩) كتاباً من كتب أبي نعيم^(٢).

فانظر هذه الثمار العظيمة التي أثمرها عمل هذا الأب الناصح في دفع ابنه إلى مسجد أبي نعيم، وذهابه إلى عمله بنفسه ينفخ النار ويذيب الحديد، وقد نظر الله إلى نيته، ونفع بابنه النفع الكبير كما ترى من كلام مجازه أبي سعد.

- المقرئ المجوّد أحمد بن عبد الجبار، ابن الطيوري الصيرفي
الكتبي (٤٣٤-٥١٧هـ):

قال الذهبي في ترجمته: «شيخ صالح مكثر، اعتنى به أخوه، وسمّعه، واستجاز له»^(٣).

- الإمام المفسر عبد الحق ابن الإمام الحافظ أبي بكر غالب المحاربي
الأندلسي، الغرناطي، المالكي (٤٨٠-٥٤٢هـ):

قال الذهبي في ترجمته: «اعتنى به والده، ولحق به [العلماء] الكبار،

(١) السابق (١/٥٧٨).

(٢) انظر قائمة المسموعات في المصدر المذكور (١/٥٨٠-٦٠٠).

(٣) تاريخ الإسلام (٣٥/٤٠٩).

وطلب العلم وهو مراهق، وكان يتوقد ذكاء»^(١).

- الإمام أبو سعد السمعاني (٥٠٦-٥٦٢هـ):

وُصف أبو سعد بأنه محدث المشرق، وصاحب التصانيف المفيدة الممتعة، والرياسة والسؤدد والأصالة^(٢)، وقد توفي عن (٥٦) سنة كما ترى.

«قد اعتنى به والده عناية كبيرة، مبكراً به السماع من أجلة مشايخ مرو ونيسابور، حينما رحل به إلى نيسابور سنة (٥٠٩)، وكان يحضره مجالس المحدثين، ويكتب له ما أملوه، أو ما قرىء عليهم في تلك المجالس، وكان يحصّل له الإجازات، وبهذا فقد حصل لولده علو الإسناد من مشايخ عصره، وكانت هذه الإجازات والساعات أساس مادته العلمية الأولى»^(٣).

- الإمام الجليل العالم الصدوق مسند العراق محمد بن عبد الباقي

المعروف بابن البطي (٤٤٧-٥٦٤هـ):

(١) سير أعلام النبلاء (١٩/٥٨٨)، وما بين المعقوفين زيادة مني.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى (٧/١٨٠).

(٣) مقدمة محققة التحبير في المعجم الكبير (١/٢٠)، وانظر هنا في الحاشية الإحالات التي تدل على هذا.

قال الذهبي: «اعتنى به والده من الصَّغر» ثم ذكر شيوخه وتلاميذه وهم كثيرون^(١).

- الشيخ عبد الحق بن عبد الملك المالقي العبدري المعروف بابن البيطار (٥٠٤-٥٨٦ أو بعدها):

قال ابن الأبار: «كان عالي الإسناد، صحيح السماع، ولأبيه تقدم في هذا الشأن، وهو اعتنى به، وأسمعه صغيراً، ورحل به إلى قرطبة، فأورثه نباهة»^(٢).

- الإمام يوسف (ت: ٦٥٦هـ) ابن أبي الفرج ابن الجوزي البغدادي (ت: ٥٩٧هـ):

أصيب ابن الجوزي بمحنة شديدة، إذ نفي من بلده بغداد إلى مدينة واسط وهو في الثمانين من العمر، وكان له ولد اسمه يوسف، ولد سنة (٥٨٠)، أي كان في العاشرة من العمر حين نفي والده، وقد جاء في ترجمته أنه «قرأ القرآن بالروايات العشر على ابن الباقلاني بواسط، وقد جاوز العشر سنين من عمره»^(٣)، وهذا يعني أنه قرأ الروايات مع والده حين كان يزوره في منفاه، إذ لم يرجع أبوه حتى قرأ الروايات العشر كذلك

(١) سير أعلام النبلاء (٢٠/٤٨١-٤٨٣).

(٢) التكملة (٣/١٢٢)، وعنه الذهبي في تاريخ الإسلام (٤١/٢٦٨).

(٣) الذيل على طبقات الحنابلة (٢/٢٥٨).

وهو في هذه السن^(١) فاقراً واعجب.

- مُسند الشام أبو طاهر بركات بن إبراهيم الخشوعي الدمشقي (٥١٠هـ -
٥٩٨هـ):

قال الذهبي: «هو من بيت الحديث والرواية، اعتنى به والده، وما زال هو يسمع ويُسمع، وحمل الناس عنه علماً جماً»^(٢).

- الإمام فخر الدين أبو المظفر عبد الرحيم ابن الإمام أبي سعد
السمعاني المروزي (٥٣٧-٦١٧):

قال الصفدي: «اعتنى به أبوه أتم عناية، ورحل به، وسمّعه الكثير، وأدرك الإسناد العالي، ووقع له عالياً «صحيح البخاري»، و«سنن أبي داود»، و«جامع الترمذي»، و«سنن النسائي»، و«مسند أبي عوانة»، و«تاريخ يعقوب الفسوي»، وسمع الكتب الكبار مثل «الحلية»، و«مسند الهيثم بن كليب»، وأشياء كثيرة.

وخرّج له أبوه «معجماً» في ثلاثة عشر جزءاً^(٣)، وحدث ببغداد، وعاد إلى مرو، ورحل الناس إليه، وحدث عنه الأئمة، وانقطع بموته شيء كثير

(١) قال الذهبي في تذكرة الحفاظ (٤/١٣٤٦): «قرأ بواسط وهو ابن ثمانين سنة بالعشر على ابن الباقلاني، وتلا معه ولده يوسف».

(٢) تاريخ الإسلام (٤٢/٣٣٩).

(٣) أي كتاباً فيه أسماء شيوخه، وما يرويه عنهم.

من المرويات»^(١).

- شيخ القراء عيسى بن عبد العزيز الأندلسي الشريشي الأصل،
الإسكندراني (ت: ٦٢٩هـ):

قال الذهبي في ترجمته: «أسمعه والده من أبي طاهر السلفي، وغيره
كثيراً...»^(٢).

- شيخ الديار المصرية العلامة المفتي المقرئ بهاء الدين أبو الحسن
علي بن هبة الله اللخمي المصري الشافعي (٥٥٩-٦٤٩هـ):

قال الذهبي: «حفظ القرآن صغيراً، وارتحل به أبوه، فسمع في سنة
ثمانٍ وستين من الحافظ ابن عساكر، وبيغداد من شهدة الكاتبة...»^(٣).

- المحدث حسين بن عمر الدمشقي الحلبي (٧١٠-٧٧٧هـ):

قال الذهبي في ترجمته: «شاب متيقظ، سمع وخرّج، وكتب عني
(الكاشف)...، وسمع من جماعة بحلب باعتناء أبيه...»^(٤).

(١) الوافي بالوفيات (١٨ / ٣٣١)، وانظر وفيات الأعيان (٣ / ٢١٢) وفيه أنه جمع له كذلك
«عوالي» في مجلدين ضخمين. وأنه شغله بالفقه والأدب والحديث، حتى حصل من
كل واحد طرفاً صالحاً.

وقد نقل ابن ناصر الدين في توضيح المشتبه (٨ / ١٧٤) عن الثبت الذي خرجه أبو
سعد لابنه، ولعله يريد معجم الشيوخ.

(٢) طبقات القراء (٢ / ٩٧٠).

(٣) سير أعلام النبلاء (٢٣ / ٢٥٣).

(٤) المعجم المختص (ص: ٨٨).

- العالم الأديب محمد بن علي الكيلاني التاجر (ت: ٨٢١هـ):

قال صديقه الحافظ ابن حجر: «ولد في حدود سنة سبعين (٧٧٠)،
وعُني به أبوه فشغله في عدة علوم، وحفظ (الحاوي) وعدة كتب، وحصل
له أبوه من الكتب النفيسة جملة مستكثرة»^(١).

- الإمام العلامة ولي الدين أبوزرعة أحمد بن عبد الرحيم العراقي ثم

المصري (٧٦٢-٨٢٦هـ):

قال ابن فهد: «اعتنى به أبوه، فبكر به وأحضره على أبي الحرم القلانسي
ومن في عصره، وأسمعه الكثير ببلده، وأول ما طعن في [السنة] الثالثة
رحل به إلى دمشق في سنة خمس وستين (٧٦٥)، فأحضره الكثير على الجهم
الغفير من أصحاب الفخر ابن البخاري، وابن عساكر وغيرهما.

ثم لما ترعرع حبب إليه السماع فطلب بالقاهرة ومصر بنفسه، فأكثر
عن مشايخ عصره، قرأ بنفسه عليهم الكثير...»^(٢).

- الإمام برهان الدين سبط ابن العجمي الحلبي (٧٥٣-٨٤١هـ):

قال السخاوي في ترجمته: «مات أبوه وهو صغير جداً، فكفلته أمه،
وانتقلت به إلى دمشق فحفظ بها بعض القرآن، ثم رجعت به إلى حلب،

(١) ذيل الدرر الكامنة (ص: ٢٦٧).

(٢) لحظ الألاحظ (ص: ٢٨٤-٢٨٥).

فنشأ بها، وأدخلته مكتب الأيتام لناصر الدين الطواشي تجاه «الشاذبختية الحنفية» بسوق النشاب، فأكمل به حفظه، وصلى به على العادة التراويح في رمضان بخانقاه جدّه لأمه الشمس أبي بكر أحمد ابن العجمي... برأس درب البازيار»^(١).

قلت: قال شيخنا الأستاذ الشيخ محمد عوامة: «وفي هذا العمل الأخير ربط قلبي بين قلب ولدها الناشيء الصغير، وبين أجداده وأسلافه، كأنها تريد أن تقول له: أريدك أن تخلف أسلافك وتنهج نهجهم»^(٢).

- أحمد بن المحب محمد بن بلكا القادري (ت: ٨٦٤هـ):

قال السخاوي: «اعتنى به أبوه، فأسمعه بقراءتي وعليّ، ولم يلبث أن مات بالطاعون سنة أربع وستين (٨٦٤)، وكان رفيقاً لولدي عوضهما الله الجنة»^(٣).

- عبد الرحمن بن محمد القرشي الزبيري القاهري ويعرف بابن

الفاقوسي (٧٨٦-٨٦٤هـ):

قال السخاوي: «ولد بالقاهرة، ونشأ بها فحفظ القرآن وجوّده عند

(١) الضوء اللامع (١/١٣٨).

(٢) مقدمة الكاشف وحاشية الإمام المذكور عليه (١/١٠٠).

(٣) الضوء اللامع (١/١٠١).

الفخر الضير، وألفية ابن مالك، وحضر دروس الغماري في النحو،
وحُبب إليه علم التعبير، وأدمن مطالعة كتبه، والاجتماع بأهله، فمهر فيه
بحيث فاق العارفين فيه على قلتهم، ومن بديع تعبيره قوله لمن قص عليه
أنه رأى في إحدى يديه رغيفاً، وفي الأخرى قرصاً وهو يأكل منهما: إن له
زوجة، وهو يزني بابتتها، فاعترف الرائي واستغفر وتاب.

وكان قد اعتنى به أبوه فأحضره على ابن حاتم، ثم أسمعته الكثير
عن التنوخي، وابن أبي المجد، وابن الشيخة، والحلاوي، والسويداوي،
والقطب عبد الكريم الحلبي، والعراقي، والهيثمي، وابن الملقن، والصدر
المناعي، والمجد إسماعيل الحنفي، والمحج ابن هشام، وحفيد أبي حيان،
والجمال العرياني، في آخرين»^(١).

- محمد بن عبد الرحمن بن أحمد: المحب بن التقي بن القطب
القلقشندي الأصل، القاهري الشافعي (ت: ٨٧٠هـ ظناً):

قال السخاوي: «اعتنى به أبوه، فأحضره على شيخنا [ابن حجر]،
وابن الفرات، وغيرهما، وحفظ كتباً، وعرض على جماعة، واشتغل عند
البهاء المشهدي، وغيره»^(٢).

(١) الضوء اللامع (٤/ ١٢٨).

(٢) الضوء اللامع (٧/ ٢٨٢-٢٨٣).

- هاجر ابنة المحدث محمد بن محمد المقدسي الأصل، القاهري

الشافعي (ولدت سنة ٧٩٠-٨٧٤هـ):

قال السخاوي: «اعتنى بها أبوها فأحضرها وأسمعها الكثير جداً من عوالي الأجزاء، والمشيوخات، والأربعينات، والفوائد، والكتب، لكن غاب عنا حصره، وحصلت منه بالتتابع جملة، وصارت بأخرة أسند أهل عصرها، وتزاحم عليها الطلبة، وكنت ممن حمل عنها قديماً أشياء قليلة، استغناء عنها خصوصاً، وقد كانت على نمط كثير من العجائز في عدم التحجب ونحوه، ثم حسن حالها، وقرأت عليها سائر ما وقفت عليه لأجل الولد، وغيره...»^(١).

- خديجة ابنة محمد بن عبد الله بلكا، أم سلمة (القرن ٩هـ):

قال السخاوي: «ابنة صاحبنا المحب القادري، شقيقة أبي الطاهر محمد وزينب، اعتنى بها أبوها، فأسمعها أشياء منها البخاري في الظاهرية، وأجاز لها جماعة»^(٢).

وقال في ترجمة أختها زينب: «اعتنى بها أبوها فأسمعها أشياء منها

البخاري في الظاهرية»^(٣).

(١) الضوء اللامع (١٢/١٣١).

(٢) الضوء اللامع (١٢/٣١).

(٣) الضوء اللامع (١٢/٤٧).

- أحمد بن محمد بن محمد بن عبيد: أبو البركات بن أبي سعد بن القطان (كان حياً سنة ٩٠٢هـ):

قال السخاوي: «اعتنى به أبوه، فأقرأه القرآن، وأسمعه الحديث، وهو ممن سمع مني، وخلف والده في [خانقاه] (سعيد السعداء) وغيرها»^(١).

- أبو الفضل أحمد بن محمد العقبي الصحراوي (كان حياً سنة ٩٠٢هـ):

قال السخاوي: «اعتنى به عم أبيه الزين رضوان، فأسمعه على الشرف ابن الكويك، والولي العراقي، والجمال الحنبلي، والشمس الشامي، والنور الفوي، وطائفة، واستجاز له خلقاً»^(٢).

- الفقيه الفيلسوف المصلح المجدد محمد يوسف موسى (١٣١٧- ١٣٨٣هـ):

جاء في ترجمته أن والده توفي في السنة الأولى من حياته، وكان أحد إخوة ثلاثة، ترملت أمهم في فتاء السن، ونزعت في تربية هؤلاء الأولاد منزع إخوتها آل والي، فحرصت على تعليمهم، ورفضت ما أشار به عمُّ الطفل الوليد من إعداده ليكون فلاحاً يشرف على شؤون الزراعة، ويفتح

(١) الضوء اللامع (٢/ ١٨٥)، وما بين المعقوفين مني.

(٢) الضوء اللامع (٢/ ٩٠).

البيت في القرية، وقالت: إن ابني هذا سيكون صاحب عمود. وتعني أن ابنها سيكون عالماً أزهارياً يلتف الناس حوله، ليدرسوا عليه، ويستفيدوا من علمه.

قال الدكتور محمد الدسوقي: «وتحقت نبؤة الأم الصالحة، فصار ولدها هذا عالماً مرموقاً، ودكتوراً في الفلسفة، وفتياً له دراسات علمية الرصينة»^(١).

- الشيخ المفسر محمد الأمين الجكني الشنقيطي (ت: ١٣٩٣هـ):

يقول الشيخ: «لما حفظت القرآن، وأخذت الرسم العثماني، وتفوقت فيه على الأقران، عُنيت بي والدي وأخوالي أشد عناية، وعزموا على توجيهي للدراسة في بقية الفنون، فجهزوني والدي بجملين: أحدهما عليه مركبي وكتبي، والآخر عليه نفقتي وزادي، وصحبني خادم ومعه عدة بقرات، وقد هيات لي مركبي كأحسن ما يكون من مركب، وملابس كأحسن ما تكون، فرحاً بي، وترغيباً لي في طلب العلم، وهكذا سلكتُ سبيل الطلب والتحصيل»^(٢).

(١) من: محمد يوسف موسى (ص: ١٢-١٣). وانظر ما جاء عن أسرة والي المصدر نفسه (ص: ١٢) وهو ينقل عن تقويم دار العلوم (ص: ٣٦٨).

(٢) من ترجمته في مقدمة فقه المعاملات (ص: ١٨-١٩)، والمؤلف ينقل عن ترجمة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي لعبد الرحمن السديس.

إن هذه النماذج المشرقة التي رأيناها من الآباء الواعين والأمهات الواعيات، تبعث على الإعجاب، وتثير الغبطة، وتدعو إلى الاقتداء.

وقد نلاحظ فيها التكرار والتشابه في الأخبار في أن فلاناً اعتنى به أبوه، وفلاناً اعتنى به أبوه، وهكذا... وهو تكرار مقصود للاطلاع على جهود أولئك الآباء وأثرهم في تعلّم أبنائهم وتخرّجهم ونبوغهم. هذا أولاً، وثانياً لتأكيد هذا المعنى الذي نسوق هذه الأخبار له، وهو رعاية الأسرة وعنايتها وحرصها وإرادتها الخير لأبنائها.

ونتساءل: ماذا لو قصر أولئك الآباء والأمهات في حق أبنائهم هؤلاء الذين أصبحوا - رجالاً ونساءً - رموزاً كبيرة في تاريخنا العلمي، انتفعوا ونفعوا، وتحملوا الأمانة وأدوها، وأضاء - كلٌّ في موقعه - محيطه الذي كان فيه؟

تُرى لو استجابت أم أرملة لنداء الحاجة المؤقتة فدفعت بابنها إلى السوق بلا علم يستهدي به، ولا سلوك يتجمل بجماله، ولا غاية يحيا لها، ماذا ستكون النتيجة؟

ستكون ضياع هذا المستقبل الكبير الذي صنعه ذلك الطفل اليتيم، وحرمان الكثير من الطلاب من علم بثه، وإرشادٍ أظهره، وحقٍ دعا إليه.

وأيضاً: ترى لو استجاب أب لنوازع الحاجة الدنيوية فسلك بابنه معه في مسالك الدنيا، وزج به في أودية العمل المبكر دون علم يرفع غاشية الجهل، ولا دليل يهدي الحائر في الطرقات المظلمة، ولا بصير بالحلال والحرام، ولا بصيرة تتطلع إلى حقائق الوجود، ترى ماذا ستكون النتيجة؟

ستكون حتماً غياب كثير من الأسماء اللامعة التي يزدان بها تاريخنا العلمي والعملية.

هذان سؤالان، ومن يقرأ سيثور في نفسه غيرهما.

ومن المهم أن نقندي بهؤلاء الآباء الجاهدين المجاهدين، والأمهات الجاهدات والمجاهدات، ونوجه بأبنائنا إلى العلم فهو خير سبيل.

ورحم الله التابعي العالم الصالح الصابر عروة بن الزبير بن العوام (المتوفى سنة: ٩٤هـ) فقد جاء عنه أنه قال لبنيه:

«يا بني تعلموا، فإنكم إن تكونوا صغار قوم عسى أن تكونوا كبارهم، واسوأته، ماذا أقبح من شيخ جاهل؟!»^(١).

وجميل أن نردد مع عروة: واسوأته، ماذا أقبح من شخص كبير

جاهل؟!.

(١) صفة الصفوة (٢/ ١٥).

إحضارهم مجالس العلم وهم صغار

كان من عناية الأسرة المسلمة بالأبناء حملهم إلى مجالس العلم وهم صغار غير واعين ولا مدركين، ليرتبطوا بالعلم، ويقتربوا منه، ويكون ذلك أساساً نافعاً لهم حتى يتفتح وعيهم وتنمو مداركهم.

والأمثلة في ذلك كثيرة، وهي من المباحث التي ينبغي الاهتمام بها وجمعها وتبويبها وإظهارها، لما فيها من كشف جميل عن الحياة العلمية لدى المسلمين، وحبهم للعلم، وأساليبهم في تحييب أبنائهم إليه، فمن ذلك هذه الإلماحات:

- قال ابن خلكان في ترجمة التابعي أبي إسحاق عمرو بن عبد الله بن علي السبيعي الهمداني الكوفي: «من أعيان التابعين، رأى علياً وابن عباس وابن عمر من الصحابة، رضي الله عنهم أجمعين، وروى عنه الأعمش وشعبة والثوري وغيرهم، رضي الله عنهم، وكان كثير الرواية.

ولد لثلاث سنين بقين من خلافة عثمان، رضي الله عنه، وتوفي سنة تسع وعشرين ومئة... وكان أبو إسحاق المذكور يقول: رفعني أبي حتى رأيت علي بن أبي طالب رضي الله عنه، يخطب وهو أبيض الرأس واللحية»^(١).

(١) وفيات الأعيان (٣/٤٥٩).

وفي هذا الخبر - بالإضافة إلى إحصاره - اهتمام الأب بأن يرى ابنه علياً، وفي رفعه له وسيلة لتأكيد هذا في ذهنه.

- وقال السخاوي في ترجمة كمال الدين محمد بن محمد المرشدي ثم المكي الحنفي سبط الكمال الدميري (٧٩٦-٨٦١هـ بمكة):

«ولد بمكة، ونشأ بها، فقرأ القرآن وتلا به .. وعرضه على أبيه وعمه ... واشتغل في الفقه على أبيه وعمه، وبالقاهرة على العز عبد السلام البغدادي، وآخرين، وفي النحو على أبيه ... وكان أبوه قد اعتنى به في صغره، وأحضره في أول شهر من عمره فما بعده، فكان ممن حضر عليه الشمس بن سكر، وأحمد بن حسن بن الزين ...»^(١).

- وقال في ترجمة صاحبة بنت علي بن عمر، حفيدة الإمام الكبير سراج الدين ابن الملقن (توفيت سنة ٨٧٦هـ، وتوفي جدها سنة ٨٠٤هـ):

«أحضرت في الثالثة [من عمرها] في شوال سنة سبع وتسعين [٧٩٧] وبعدها على جدّها، بل سمعت عليه المسلسل وغيره، وحدثت عنه، سمع منها الفضلاء، حملت عنها، وكانت كاسمها»^(٢).

هذه أمثلة، وهناك غيرها الكثير الكثير، مما يمكن أن يملأ مجلداً،

(١) الضوء اللامع (٨/ ٢٩٧).

(٢) الضوء اللامع (١٢/ ٧٠)، وانظر عن سماع الصغير فتح الباري (١/ ١٧١).

فلعل همة تنهض بذلك، وتكشف لنا جانباً من عجائب ما فعلته الأسرة المسلمة استجابة لقول ربها ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوْأ أَنفُسِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾^(١) هذه الوقاية المتمثلة بالتعليم والتأديب كما مر معنا.

لن أعلّق طويلاً فيكفي أن نتخيل وجود طفلٍ عمره شهر في مجالس العلم لنذكر آية أسرةٍ صنعها الإسلام.

(١) من سورة التحريم، الآية: ٦.

مباشرة تعليمهم بالانفس

كان من رعاية الأسرة أن يتولى العالم فيها مباشرة تعليم الأبناء بنفسه ما وجد إلى ذلك سبيلاً، وهذا يبين مدى الرعاية من جهة، ويؤكد الاقتداء بهم في هذا من جهة أخرى، وأذكر من ذلك هذه الأخبار:

- قال ابن فرحون في ترجمة أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت: ٣٢٢هـ بمصر):

«كان من أهل العلم والحفظ لكتب أبيه، والإتقان، سُمعت منه كتب أبيه من حفظه، وكان يحفظها كما يحفظ القرآن، ويرد فيها من حفظه النقطة والشكلة وما معه نسخة، كان أبوه أبو محمد حفظه إياها في اللوح، وعدتها واحد وعشرون مصنفًا» ثم عددها^(١).

- وقال ياقوت في ترجمة الإمام ابن جني (ت: ٣٩٢هـ):

«كان لابن جني من الولد: علي وعال وعلاء، وكلهم أدباء فضلاء قد خرَّجهم والدهم وسمعهم وحسَّن خطوطهم، وهم معدودون في الصحيحي الضبط، وحسني الخط»^(٢).

(١) الديباج المذهب (١/١٦١)، وفيه «أحد وعشرون»!

(٢) معجم الأدباء (١/١٩) ط١ الرفاعي، وانظر: الوافي (١٩/٤٧٣).

- وقال ابن خلكان في ترجمة الإمام اللغوي ابن سيده المرسى: أبي

الحسن علي بن إسماعيل (٣٩٨-٤٥٨هـ):

«كان ضريراً، وأبوه ضريراً، وكان أبوه أيضاً قيباً بعلم اللغة، وعليه

اشتغل ولده في أول أمره»^(١).

- وقال في ترجمة الإمام عبد الملك بن عبد الله الجويني (٤١٩-

٤٧٨هـ):

«تفقه في صباه على والده أبي محمد - وكان يعجب بطبعه وتحصيله

وجودة قريحته وما يظهر عليه من مخايل الإقبال - فأتى على جميع مصنفات

والده وتصرف فيها، حتى زاد عليه في التحقيق والتدقيق»^(٢).

- وقال الذهبي في ترجمة الإمام ابن الإمام أبي نصر عبد الرحيم ابن أبي

القاسم القشيري النيسابوري (ت: ٥١٤هـ):

«اعتنى به أبوه، وأسمعه، وأقرأه حتى برع في العربية، والنظم والنثر،

والتأويل، وكتب الكثير بأسرع خط، وكان أحد الأذكياء، لازم إمام

الحرمين، وحصل طريقة المذهب والخلاف، وصاد، وعظم قدره، واشتهر

ذكره»^(٣).

(١) وفيات الأعيان (٣/ ٣٣٠).

(٢) وفيات الأعيان (١/ ١٦٨)، وانظر ترجمة والده في (٣/ ٤٧-٤٨).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٩/ ٤٢٤-٤٢٥).

- وجاء في ترجمة ابن دقيق العيد (ت: ٧٠٢هـ):

«نشأ بقوص، واشتغل على والده بمذهب مالك»^(١).

- وقال الذهبي في ترجمة الشيخ إسحاق ابن الشيخ برهان الدين

إبراهيم: ابن الوزيري (ت: ٧١٩هـ) مُؤدّب الأيتام بدمشق:

«اعتنى به والده، وأسمعه من الحافظ عبد العظيم المنذري (معجمه)،

وأسمعه (الشاطبية)، وعدة كتب في القراءات من الكمال الضرير، ثم قرأ

بالسبع على والده، وعلى الكمال ابن فارس. وكان عاقلاً، فاضلاً، حسن

السمت...»^(٢).

- وقال السخاوي في ترجمة المحدث إبراهيم ابن المحدث عبد الله

الغرياني (٧٩١-٨٥٢هـ):

«ولد بالقاهرة، ونشأ بها، فحفظ القرآن... وحفظ كتباً في العلوم

... وانتفع في ابتدائه في النحو والفقه والحديث بوالده الجمال، بل اعتنى

به أبوه فأحضره على التقى ابن حاتم، والشهاب ابن المنقر، والصلاح

الزفتاوي، والتاج الصردي، والنجم ابن الكشك، والسراج الكومي،

والزنين ابن الشيخة والمراغي، والتقى الدجوي، وستيته ابنة ابن غالي

(١) العقد المذهب (ص: ١٧٥).

(٢) طبقات القراء (٣/ ١٢٥٤).

وأسمعه على التنوخي، وابن أبي المجد، والبلقيني، والعراقي، والهيثمي،
والصدر المناوي، والحلاوي، والسويداوي، والشرف أبي بكر بن جماعة،
والنجم البالي، والشهاب أحمد بن عبد الله بن رشيد السلمى الحجازي
الحنفي، ومريم الأذرية في آخرين من الصنفين»^(١).

- وقال الأستاذ الأثري في ترجمة السيد عبد الباقي ابن الإمام المفسر

أبي الثناء محمود آلوسي (ت: ١٢٩٢هـ):

«تفقه في مذهب أبي حنيفة والشافعي على والده، وبعض تلاميذه
وغيرهم»^(٢)، وقال وهو يعدد مؤلفات أبي الثناء: «الفوائد السنية من
الحواشي الكلنبوية: في الآداب والمناظرة.

وهي مختصر حاشية مطبوعة جداً للكلنبوي، على حاشية مير أبي الفتح
على (الحنفية) في الآداب، اختصرها في القسطنطينية في أثناء تفرته ابنه
عبد الباقي حاشية مير، وكتبها على هامش النسخة، ثم جردها ابنه السيد
نعمان، وجمعها حفظاً لها من الضياع»^(٣).

- وجاء في ترجمة علاء الدين ابن الفقيه الكبير ابن عابدين (١٢٤٤ -

١٣٠٦هـ):

(١) الضوء اللامع (١/ ٧٠).

(٢) أعلام العراق (ص: ٥٥).

(٣) أعلام العراق (ص: ٣٥).

«نشأ في حجر والده إلى أن ختم القرآن الكريم صغيراً فأثقنه غاية الإتيقان، وحفظه والده بعض المتون، وكان يحضره بجانبه في دروسه، ويتفرس فيه الخير، ولما قرأ في نهاية أمره (ثبته) الذي جمعه لشيخه الشيخ شاكر العقاد أحضر ابنه [هذا]، وأجازه مع الحاضرين إجازة عامة، وشابكه، وصافحه، ودعا له»^(١)، (وتوفي والده سنة ١٢٥٢هـ).

- ومن ذلك ما جاء في ترجمة العلامة الفقيه الأستاذ مصطفى بن أحمد

الزرقا (١٣٢٢-١٤٢٠هـ):

قال الأستاذ مجد مكّي وهو يتحدث عن أبرز العلماء الذين لهم أثر في تكوينه العلمي وقد ذكرَ جده العلامة الشيخ محمد الزرقا (ت: ١٣٤٣هـ) أولاً ثم والده (ت: ١٣٥٧هـ) ثانياً:

«كان والده - رحمه الله تعالى - فقيهاً، لا يكاد يوجد كتاب من كتب الفقه وأمّهاته الأولى إلا ودرسه دراسة، بل وحرثه حرثاً، ولا يعلم بعد جده - رحمه الله تعالى - مثل والده في سعة الاطلاع، وجودة الفهم، ودقة النظر في تخريج وتنزيل المسائل والحوادث على القواعد.

ولم تقتصر علاقته بوالده على الدروس النظامية في المدرسة الخسروية، بل لازمه في دروسه خارج المدرسة في جامع آل الأميري (جامع الخير)، وفي الجامع الأموي الكبير بمدينة حلب.

(١) تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري (١/٦٣).

ومما قرأه على والده حاشية ابن عابدين في المدرسة الشعبانية، خارج الدروس النظامية، وكان يحضر درس والده من هم في سن أبيه، وكان هو أصغر الموجودين.

كما لازم والده في البيت، فقد كان يقضي معه الليالي الطوال، وربما امتد السهر إلى الساعة الثانية بعد منتصف الليل، في نقاش فقهي، يبلغ بهم أحياناً إلى التشاد، كل مع دليله وطريقة فهمه، وقد ينحاز الوالد إلى رأي ابنه بعد طول جدال، وقد ينحاز الابن إلى رأي أبيه أخيراً، فارتفعت الحجب بينه وبين أبيه في نطاق المناقشات العلمية، مع الحفاظ التام على كرامة الأبوة ووقارها.

كان والده معه مثل المدرب الرياضي، يمرنه تمرين خبير أوتي صبراً وطول أناة، فكان يشجعه على النقاش والجرأة في إبداء الرأي، ويدربه على استخلاص الأحكام من خلال الأدلة والحجج.

وقد كان والده ذا ولع شديد بالأدب والشعر، ولم يعرف عنه أنه مارس نظمه، ولم تكن مذاكراته كلها في حقول الفقه، بل كانت متنوعة الأشكال، متعددة الألوان، فربما أمضى مع والده الساعات والأيام والليالي في مطالعة الروائع من كتب الأدب كالأغاني والعقد الفريد، وما إليهما كسقط الزند واللزوميات لأبي العلاء المعري. ومما قرأه على والده في

الأدب أيضاً: «الطراز» لأمير المؤمنين الزيدي في البلاغة، و«شرح بانة سعاد»^(١).

إنَّ هذه الأخبار الرائعة تقودنا إلى شيء مهم، وهو أن على العالم أن لا ينسى أنه أب، وعلى الأب - إذا كان عالماً - أن لا ينسى أنه عالم، ليعطي لولده من أبوته ومن علمه حقه.

إننا نجد الكثير من الآباء ينشغلون بتلامذتهم عن أبنائهم، فيحصل تقصير منهم، يؤدي إلى قصور لديهم.

ومن الجميل جداً أن يكون الابن ابناً وتلميذاً فيجمع وصفين، في مقابل وصفين للأب: الأبوة والعلم، ويتحقق له النسب الصلبي والقلبي.

ومن جهة أخرى نذكر الأبناء أن يعرفوا نعمة الله عليهم إذا كان لهم آباء علماء، ويستفيدوا منهم، وهذا يختصر لهم الوقت والجهد والمال، فالمعلم أمامهم ينظرون إليه في عودته وقيامه، ويقظته ومنامه، وسكوته وكلامه، وفي كل ذلك علم وأدب وسلوك وتوجيه، بالقول والعمل، والحركة والسكون، والصمت والسمت.

وفي حرمان الأبناء من خير والدهم يقول الأمير الأديب أبو الفضل

(١) مقدمة «فتاوى مصطفى الزرقا» (ص: ٢٧-٢٨).

عبيد الله بن أحمد الميكالي (ت: ٤٣٦هـ):

كم والدٍ يحرمُ أولادَهُ وخيرُهُ يحظى به الأبعدُ
كالعينِ لا تبصرُ ما حولها ولحظها يُدرك ما يبعُدُ^(١)

وهذه لقطة جميلة، فالعين لا تبصر الوجه مثلاً، وهي فيه - إلا بمرآة -
مع أن لحظها يرى الأشياء البعيدة، وكذلك الوالد الذي يفيض خيره على
البعيد، ويحرم منه القريب!.

(١) روح الروح (٢/١٦٦).

تفخيم أمر العلم

في قلوبهم وعقولهم ونفوسهم

إن من ركائز التربية تفخيم المفخّم وتعظيم المعظّم في تصورات الأبناء، وغرس هذه المعاني السامية في قلوبهم وعقولهم ونفوسهم، ليشبوا على تقدير هذه المعاني، ويتطلعوا إلى تحصيلها مدى حياتهم.

- وأظن من هذا القبيل ما فعله الإمام ابن أبي زيد (ت: ٣٨٦هـ):
يقول الشعراني: «وقد حكى عن ابن أبي زيد القيرواني صاحب الرسالة - رحمه الله تعالى - أنه أعطى فقيه ولده^(١) لما علّمه حزباً من القرآن مئة دينار، فقال الفقيه: أنا يا سيدي ما عملت شيئاً أستحق به هذا كله، قال: فحوّل الشيخ ولده من عنده إلى فقيه آخر، وقال: هذا رجل مستهين بالقرآن»^(٢).

ولنا أن نتصور أثر هذا القول وهذا الفعل من ابن أبي زيد في نفس ولده، وما سيخلفان فيها من تعظيم لكتاب الله تعالى.

- ومنه ما جرى للشيخ الإمام المسند الكبير الصالح أبي الوقت عبد الأول بن عيسى السجزي (٤٥٨-٥٥٣هـ):

وقد روى الشيخ أبو الوقت خبره لتلميذه يوسف بن أحمد الشيرازي،

(١) أي معلّم ولده.

(٢) تنبيه المغترين (ص: ١٠٥).

فلندعه يحكي لنا ذلك، قال في كتابه «أربعين البلدان»: «لما رحلت إلى شيخنا رُحلة الدنيا^(١) ومُسند العصر أبي الوقت، قدَّر الله لي الوصول إليه في آخر بلادِ كِرْمَان، فسَلَّمْتُ عليه، وقَبَّلْتُه، وجلست بين يديه، فقال لي: ما أقدمك هذه البلاد؟

قلتُ: كان قصدي إليك، ومُعَوَّلِي بعد الله عليك، وقد كتبت ما وقع إليَّ من حديثك بقلمي، وسعيت إليك بقدمي، لأدرك بركة أنفاسك، وأحظى بعلو إسنادك.

فقال: وفقك الله وإيانا لمرضاته، وجعل سعينا له، وقصدنا إليه، لو كنت عرفتني حق معرفتي، لما سلمت عليَّ، ولا جلست بين يدي، ثم بكى بكاءً طويلاً، وأبكى من حضره، ثم قال: اللهم استرنا بسترِكَ الجميل، واجعل تحت الستر ما ترضى به عنا.

يا ولدي، تعلم أني رحلت أيضاً لسمع «الصحيح» ماشياً مع والدي، من هراة إلى الداوودي ببوشنج، ولي دون عشر سنين، فكان والدي يضع على يدي حجرين، ويقول: احملهما. فكنت من خوفه أحفظهما بيدي، وأمشي وهو يتأملني، فإذا رآني قد عييت أمرني أن ألقى حجراً واحداً، فألقي، ويخف عني، فأمشي إلى أن يتبين له تعبتي، فيقول لي: هل عييت؟ فأخافه وأقول: لا، فيقول: لم تقصر في المشي؟ فأسرع بين يديه ساعة، ثم

(١) أي يرحل إليه من البلدان.

أعجز، فيأخذ الآخر فيلقيه، فأمشي حتى أعطب، فحيثذ كان يأخذني ويحملني.

وكنا نلتقي جماعة الفلاحين وغيرهم، فيقولون: يا شيخ عيسى، ادفع إلينا هذا الطفل نركبه وإياك إلى بوشنج، فيقول: معاذ الله أن نركب في طلب أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل نمشي، وإذا عجز أركبته على رأسي إجلالاً لحديث رسول الله ورجاء ثوابه. فكان ثمرة ذلك من حُسن نيته أني انتفعت بسماع هذا الكتاب وغيره، ولم يبق من أقراني أحد سواي، حتى صارت الوفود ترحل إليّ من الأمصار.

ثم أشار إلى صاحبنا عبد الباقي بن عبد الجبار الهروي أن يقدم لي حلواء، فقلت: يا سيدي، قراءتي لجزء أبي الجهم أحب إليّ من أكل الحلواء، فتبسم، وقال: إذا دخل الطعام، خرج الكلام، وقدم لنا صحناً فيه حلواء الفانيذ، فأكلنا، وأخرجت الجزء، وسألته إحضار الأصل فأحضره، وقال: لا تخف ولا تحرص، فإني قد قبرت ممن سمع عليّ خلقاً كثيراً، فسل الله السلامة، فقرأت الجزء، وسررت به، ويسّر الله سماع «الصحيح» وغيره مراراً، ولم أزل في صحبته وخدمته إلى أن توفي ببغداد في ليلة الثلاثاء من ذي الحجة، ودفناه بالشونيزية، قال لي: تدفني تحت أقدام مشايخنا بالشونيزية^(١).

(١) تعرف الآن بمقبرة الشيخ جنيد البغدادي.

ولما احتُضِرَ سِنْدَتَهُ إِلَى صَدْرِي، وَكَانَ مُسْتَهْتَرًا^(١) بِالذِّكْرِ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ الصُّوفِي، وَأَكْبَ عَلَيْهِ، وَقَالَ: يَا سَيِّدِي، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَانَ آخِرَ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»، فَرَفَعَ طَرْفَهُ إِلَيْهِ وَتَلَا: ﴿يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ . بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (سورة يس: ٢٦-٢٧). فَدَهَشَ إِلَيْهِ هُوَ وَمَنْ حَضَرَ مِنَ الْأَصْحَابِ، وَلَمْ يَزَلْ يَقْرَأُ حَتَّى خَتِمَ السُّورَةَ وَقَالَ: اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ، وَتَوَفَّى وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى السَّجَادَةِ^(٢).

- وَسَمِعْتُ مِنْ قَرِيبٍ عَنِ الْعَلَامَةِ الْجَلِيلِ الْمُرِّيِّ الْكَبِيرِ الْأَسْتَاذِ الشَّيْخِ عَبْدِ اللَّهِ سِرَاجِ الدِّينِ (ت: ١٤٢٢ هـ) أَنَّهُ طَلَبَ مِنْ حَفِيدٍ لَهُ كَانَ قَرِيبًا مِنْهُ أَنْ يَنَاقِلَهُ الْمُصْحَفَ الشَّرِيفَ، وَلَمْ يَكُنِ الْحَفِيدُ عَلَى وَضُوءٍ، فَأَرَادَ أَنْ يَحْمِلَ الْمُصْحَفَ بِمَنْدِيلٍ وَرَقِيٍّ، فَصَاحَ بِهِ الشَّيْخُ: لَا. وَرَفَعَ طَاقِيَتَهُ مِنْ رَأْسِهِ، وَنَاقِلَهُ إِيَّاهَا وَقَالَ: احْمَلْهُ بِهَذِهِ.

وَأَحْسَبُ أَنَّ هَذَا الْخَبَرَ غَيْرَ مُحْتَاجٍ إِلَى تَعْلِيقٍ. فَرَحِمَ اللَّهُ الشَّيْخَ مَا كَانَ أَدَقَهُ وَأَوْعَاهُ، وَمَا أَعْظَمَ الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ وَالْعِلْمَ فِي صَدْرِهِ!
 إِنَّ تَعْظِيمَ الْمُعْظَمِ سَبَبٌ كَبِيرٌ مِنْ أَسْبَابِ الْإِنْتِفَاعِ بِهِ: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعْبِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾^(٣).

(١) أي: مولعاً به منصرفاً إليه.

(٢) سير أعلام النبلاء (٢٠/٣٠٧-٣٠٩).

(٣) من سورة الحج، الآية: ٣٢.

النفقة عليهم في تعلم العلم النافع

إن النفقة على العيال من الأعمال المأجورة المشكورة^(١)، فكيف إذا كانوا طلاب علم؟ وقد بذل المسلمون أموالهم وما استطاعوا في ذلك طيبةً بها نفوسهم، راضية ببذلها قلوبهم، ومن يذكر في هذا المجال الطيب:

- والد الإمام المجاهد الكبير عبد الله بن المبارك (ت: ١٨١ هـ):

ذكر الصديقي قال: لما بلغ عبد الله بن المبارك دفع إليه أبوه خمسين ألف درهم يتجر بها، فطلب العلم حتى أفقدها، فلما انصرف لقيه أبوه فقال: ما جئت به؟ فأخرج إليه الدفاتر، فقال: هذه تجارتي. فدخل أبوه المنزل وأخرج له ثلاثين ألف درهم أخرى وقال: تتم بها تجارتك. فأنفقها^(٢).

- ويذكر هنا والد الحافظ الإمام أبي الوليد هشام بن عمار السلمي

الدمشقي:

(١) للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (ت: ٤٣٠ هـ) كتاب بعنوان «فضيلة الساعين الأبطال، المنفقين على العيال» وقد سمعه منه أبو علي الحداد (ت: ٥١٥ هـ). انظر: المنتخب من معجم شيوخ أبي سعد السمعي (١/٥٨٣).

ويقول التابعي الصالح المسدد أبو قلابة عبد الله بن زيد الجرمي البصري (ت: ١٠٤ هـ): «أي رجل أعظم أجراً من رجل ينفق على عيال له صغار، يعفهم الله به ويغنيهم؟». صفة الصفوة (٣/٢٣٨).

ويقول الإمام عبد الله بن المبارك (ت: ١٨١ هـ): «لا يقع موقع الكسب على العيال شيء، ولا الجهاد في سبيل الله عز وجل». صفة الصفوة (٤/١٣٩).

(٢) ترتيب المدارك (١/٣٠٠) ط، بيروت.

وهشام هو خطيب دمشق ومقرئها، ومحدثها وعالمها، المعمر الزاهد،
شيخ البخاري وأبي داود والنسائي وأُمم سواهم، ولد سنة (١٥٣)، وتوفي
سنة (٢٤٥) رحمه الله تعالى:

«قال أبو بكر محمد بن سليمان الربعي، عن محمد بن الفيض الغساني:
سمعت هشام بن عمار بن نصير يقول: باع أبي بيتاً له بعشرين ديناراً،
وجهنني للحج، فلما صرت إلى المدينة أتيت مجلس مالك بن أنس، ومعني
مسائل أريد أن أسأله عنها، فأتيته وهو جالس في بيته في هيئة الملوك،
وغلمان قيام، والناس يسألونه وهو يجيبهم.

فلما انقضى المجلس قال لي بعض أصحاب الحديث: سل عما معك،
فقلت له: يا أبا عبد الله، ما تقول في كذا وكذا؟ فقال: حصلنا على الصبيان!
يا غلام احمله! فحملني كما يحمل الصبي، وأنا يومئذ غلام مدرك،
فضر بني بدرّة مثل درّة المعلمين سبع عشرة درّة، فوقفت أبكي، فقال لي
مالك بن أنس: ما يُبكيك أو جعلتك هذه؟ يعني الدرّة.

قلت: إن أبي باع منزله، ووجه بي أتشرف بك وبالسماح منك،
فضربتني! فقال: اكتب، فحدّثني سبعة عشر حديثاً، وسألته عما كان معي
من المسائل فأجابني»^(١). ويبدو أن الإمام مالكا لم يرض طريقة سؤاله فأمر
بتأديبه!

(١) تهذيب الكمال (٣/١١٤٤)، ومعرفة القراء الكبار (١/١٩٦)، وانظر خبراً في ذلك في
كتاب المحن للتميمي (ص: ٤١٩).

- ويذكر كذلك والد الإمام الكبير أبي جعفر محمد بن جرير

الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ):

وقد ذكر الإمام والده جريراً في مناسبة لطيفة أيضاً دلت على عنايته بأبناء المسلمين، وحرصه عليهم، وإرادته الخير لهم.

قال تلميذه أبوبكر ابن كامل: جئت إلى أبي جعفر قبل المغرب ومعني ابني أبو رفاعة وهو شديد العلة... فقال لي: هذا ابنك؟ قلت: نعم، قال: ما اسمه؟ قلت: عبد الغني، قال: أغناه الله، وبأي شيء كنيته؟ قلت: بأبي رفاعة، قال: رفعه الله، أفلك غيره؟ قلت: نعم، أصغر منه، قال: وما اسمه؟ قلت: عبد الوهاب أبو يعلى، قال: أعلاه الله، لقد اخترت الكنى والأسماء. ثم قال لي: كم لهذا سنة؟ قلت: تسع سنين، قال: لم لم تسمعه مني شيئاً؟ قلت: كرهت صغره وقلة أدبه، فقال لي: حفظت القرآن وأنا ابن سبع سنين، وصليت بالناس وأنا ابن ثماني سنين، وكتبت الحديث وأنا ابن تسع سنين، ورأى لي أبي في النوم أنني بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان معي مخلاة مملوءة حجارة وأنا أرمي بين يديه، فقال له المعبر: إنه إن كبر نصح في دينه، وذبح عن شريعته، فحرص أبي على معونتي على طلب العلم وأنا حينئذ صبي صغير^(١).

(١) معجم الأدباء (٦/٢٤٤٦).

وقال أبو محمد الفرغاني: رحل محمد لما ترعرع من «أمل» وسمح له أبوه، وكان طول حياته يوجه إليه بالشيء^(١) إلى البلدان.

قال لي: أبطأت عني نفقة أبي حتى بعث كمي قميصي.

هذه الرعاية أثمرت رجلاً من أعظم رجالات الإسلام، قيل فيه عند

موته:

إِنَّ المنيّة لم تُتلف به رجلاً بل أتلفتَ علماً للدين منصوباً
كان الزمانُ به تصفو مشاربه والآن أصبح بالتقدير مقطوباً
ودّت بقاعُ بلادِ الله لو جُعلت قبراً له فحباها جسمه طيباً^(٢)

- وتذكر والدة الإمام الشيخ عبد القادر الجيلي البغدادي

الحنبلي (ت: ٥٦١هـ)، واسمها فاطمة بنت أبي عبد الله الصومعي:

رحل الشيخ عبد القادر إلى بغداد لطلب العلم، وعانى في ذلك ما

عانى، وفي ذلك يقول:

«وكنت أقتات بخرنوب الشوك، وقهامة البقل، وورق الخس من

جانب النهر والشط، وبلغت الضائقة في غلاء نزل ببغداد إلى أن بقيت

أياماً لم أكل فيها طعاماً، بل كنت أتتبع المنبذات أطعمها، فخرجت يوماً

من شدة الجوع إلى الشط لعلّي أجد ورق الخس أو البقل، أو غير ذلك

(١) أي ظل أبوه يلاحقه بشيء من المال حيث كان.

(٢) طبقات علماء الحديث (٢/٤٣٥-٤٣٦).

فأتقوت به، فما ذهبت إلى موضع إلا وغيري قد سبقني إليه، وإن وجدت أجد الفقراء يتزاحمون عليه فأتركه حياً^(١)، فرجعت أمشي وسط البلد لا أدرك منبوذاً إلا سبقت إليه حتى وصلت إلى مسجد ياسين بسوق الريحانيين ببغداد وقد أجهدني الضعف، وعجزت عن التماسك، فدخلت إليه وقعدت في جانب منه وقد كدت أصافح الموت، إذ دخل شاب أعجمي ومعه خبز صافي وشواء، وجلس يأكل، فكنت أكاد كلما رفع يده باللقمة أن أفتح فمي من شدة الجوع، حتى أنكرت ذلك على نفسي فقلت ما هذا؟ وقلت: ما هاهنا إلا الله، أو ما قضاه من الموت، إذ التفت إلي العجمي فرآني، فقال: بسم الله يا أخي، فأبيت، فأقسم عليّ فبادرت نفسي فخالفتها، فأقسم أيضاً، فأجبت، فأكلت متقاصراً، فأخذ يسألني: ما شغلك؟ ومن أين أنت؟ وبمن تعرف؟ فقلت: أنا متفقه من جيلان. فقال: وأنا من جيلان فهل تعرف شاباً جيلانياً يسمى عبد القادر، يعرف بسبط أبي عبد الله الصومعي الزاهد؟ فقلت: أنا هو، فاضطرب وتغير وجهه، وقال: والله لقد وصلت إلى بغداد، ومعى بقية نفقة لي، فسألت عنك فلم يرشدني أحد ونفدت نفقتي، ولي ثلاثة أيام لا أجد ثمن قوتي، إلا مما كان لك معي، وقد حلت لي الميتة وأخذت من وديعتك هذا الخبز والشواء، فكل طيباً، فإنما هو لك، وأنا ضيفك الآن، بعد أن كنت ضيفي، فقلت له: وما ذاك؟ فقال: أمك وجهت لك معي ثمانية دنانير، فاشترت

(٢) وقد تقرأ: حياء.

منها هذا للاضطرار، فأنا معتذر إليك، فسكتّه، وطيبت نفسه، ودفعت إليه باقي الطعام، وشيئاً من الذهب برسم النفقة، فقبله وانصرف»^(١).

- والدة العلامة خاتمة المحققين محمود بن عبد الله الأنطاكي
(ت: ١١٦١ هـ) المشهور في بلاد الروم بسultan العلماء.

ولد في أنطاكية وطلب العلم فيها، ثم رحل في طلبه إلى مكة ومصر وبلاد الأكراد، قال الشيخ المؤرخ محمد راغب الطباخ: «وحكى - رحمه الله تعالى - أنه كان في مدة إقامته ببلاد الأكراد يتجزى طول السنة بستة قروش ترسلها له والدته من ثمن غزلها.

قال: وكانت الوالدة إذا غزلت تقول - وهي تدير الدولاب - عند كل دورة: اللهم زد علم محمود. وكان هذا وردها ودأبها»^(٢).

قال: وانفق في أثناء إقامتي ببلاد الأكراد أن نفذ ما معي، وأبطأت عليّ الستة قروش، فأتيت باب المدرسة فرأيت على عتبة الباب عثمانياً، فأخذته واكتفيت به ذلك اليوم لكثرة الرخاء هناك، ثم ثاني يوم رأيت العثماني في ذلك المكان، فأخذته، ثم في ثالث يوم كذلك، فلما كان اليوم الرابع واصلتني الستة قروش، فذهبت إلى المدرسة فلم أر شيئاً، فعلمت أن ذلك كرامة من والدتي.

(١) الذيل على طبقات الحنابلة (١/٢٩٨-٢٩٩).

(٢) أشرت إلى هذا الخبر في مبحث الدعاء لهم.

ثم إنه عاد إلى بلدته، ولازم الإفادة بها حتى طار ذكره في الآفاق،
وشدَّت إليه الرحال، وتفوق على النظراء والأقران...».

ثم استدعي إلى حلب ليتولى التدريس في المدرسة الرضائية
سنة (١١٤٣ هـ)، وبقي فيها إلى أن توفي، ودفن فيها، وقد أذن بالتدريس
لزهة ثلاث مئة رجل ممن لازمه وقرأ عليه^(١)، فانظر أثر النفقة الحلال
والدعاء الصالح من تلك الأم الصالحة المباركة!.

إن هذه المواقف الجليلة والتصرفات النبيلة، التي وفق الله إليها
المبارك المروزي، وعماراً الدمشقي، وجريراً الطبري، وفاطمة الكيلانية،
والوالدة الأنطاكية، مواقف وتصرفات حقها أن تكتب بماء الذهب،
ويتناولها - وأشباهها - الخطباء والمدرِّسون، ويدخلها مؤلفو المناهج
الدراسية في مناهجهم، تقديراً لأصحابها، ودعاء لهم، وترحمًا عليهم،
واستنهاضاً لهمم الآباء والأمهات في كل عصر وحين، للاقتداء بهم،
والتأسي بأعمالهم الخالدة هذه، رحمهم الله ورضي عنهم وجزاهم خير ما
يجزي الباذلين المخلصين.

(١) انظر: إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء (٦/٤٩٣-٤٩٥)،

ولم أجد له ترجمة في سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر المطبوع، مع أن الطباخ
صرَّح في (٦/٣٨٩) أن ما يذكره من تراجم هذا القرن بدون عزو فهو منه!.

متابعتهم في أمورهم الكبيرة والصغيرة

كانت الأسرة المسلمة تتابع أبناءها في أمورهم كلها، وتقدم لهم ما ينبغي أن يقدم من نصح وتوجيه، ولا تدع أي مناسبة تمضي دون عمل ما يفيدهم في حياتهم:

- فمن ذلك ما قاله العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم لابنه عبد الله (ت: ٦٨ هـ):

قال عبد الله: قال لي أبي: يا بني إني أرى أمير المؤمنين [عمر بن الخطاب] يقربك، ويخلو بك ويستشيرك مع ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحفظ عني ثلاثاً:

- اتق الله لا تفشين له سراً.

- ولا يجربن عليك كذبة.

- ولا تغتابن عنده أحداً.

قال عامر [الشعبي]: فقلت لابن عباس: كل واحدة خير من ألف.

قال: نعم، ومن عشرة آلاف^(١).

(١) رواه الإمام أحمد في فضائل الصحابة (٢/٩٥٧) برقم (١٨٦٢)، و(٢/٩٧٠) برقم (١٩٠٥)، و(٢/٩٧٤) برقم (١٩١٩).

وفي العقد الفريد (١/٢٥): «وإني موصيك بخلال أربع» فذكر الثلاثة، وزاد:

- ولا تطوِّ عنه نصيحة.

إن هذه الوصايا التي أوصى بها العباس ابنه من أعظم الوصايا التي تعين الإنسان على النجاح والفلاح في حياته العلمية، والوصول إلى خيري الدنيا والآخرة، وهي وصايا رائعة جدير بكل من كان قريباً من صاحب قرار أن يتخلق بها ويتحلى بمضمونها.

- ومن ذلك: الوصايا الجميلة الثرية والشعرية، وهي كثيرة، وجديرة بالاهتمام، وأكتفي هنا بالتمثيل على ذلك:

* قال مسعر بن كدام الكوفي (ت: ١٥٣هـ) يوصي ابنه كداماً:

إني منحتك يا كدام وصيتي فاسمع لِقول أبِّ عليك شفيقِ
أما المزاحمة والمرء فدعهما خلقتان لا أرضاهما لصديقِ
إني بلوتهما فلم أحدهما لمجاور جارٍ ولا لرفيقِ
والجهل يزري بالفتى وعمومهُ وعروقه في الناس أي عروق^(١)

= وفي تهذيب الرياسة وترتيب السياسة (ص: ٦٨): «وإني موصيك بخلال [أربع]» ولكن فيها:

- ولا تخونن له عهداً. بدل: ولا يجربن عليك كذبة.

وفي إحياء علوم الدين (٢/ ١٧٩): «فاحفظ عني خمساً» فذكر الثلاثة المذكورة في رواية الإمام أحمد وزاد:

- ولا تعصين له أمراً.

- ولا يطلعن منك على خيانة.

وينبغي أن يخص هذا الخبر بدراسة، وتشرح فيه هذه الوصايا الخمس، ويذكر أثرها، وتمجّد مآثرها، ويستشهد لها بالأخبار والقصص المؤيدة المساندة، وذلك من أحسن ما يعنى به لمصلحة النشء.

(١) الآداب الشرعية والمنح المرعية (١/ ١٩).

وقد اشتملت هذه الأبيات على وصايا بعيدة الأثر في الأبناء فمن القبيح جداً أن يكون الإنسان مزاحاً لا يعرف من حياته غير المزاح، ممارياً لا يتقن من العلاقات الناجحة غير المراء، جاهلاً لا يعرف من العلم شيئاً، أو جاهلاً في تصرفاته نزقاً لا يمسكه عقل ولا يردعه حلم.

* وقال الإمام أبو محمد علي ابن الوزير العالم الأديب أحمد ابن حزم (ت: ٤٥٦هـ):

«أنشدني والدي الوزير في بعض وصاياه لي رحمه الله تعالى:

إذا شئت أن تحيا غنياً فلا تكن على حالةٍ إلا رضيت بدونها»
وقد وُصفَ ابن حزم بما يدل على أنه انتفع بوصية والده له، فقد جاء في ترجمته أنه كان «زاهداً في الدنيا بعد الرياسة التي كانت له ولأبيه من قبله في الوزارة وتدبير الممالك، متواضعاً»^(١).

* وقال أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي الداني (٤٦٠-٥٢٠هـ) - لما اشتد مرض موته - لولده عبد العزيز (٥٠٦ تقريباً-٥٤٦هـ):

عبد العزيز خليفتي ربُّ السماء عليك بعدي
أنا قد عهدت إليك ما تدريه فاحفظ فيه عهدي

(١) وفيات الأعيان (٣/ ٣٢٥ و ٣٢٨).

فلئن عملت به فإنك لا تزال حليف رشد
ولئن نكثت لقد ضللت وقد نصحتك حسب جهدي^(١)
والتفات الأب وهو في مرض الموت إلى ابنه، وخطابه له مذكراً وربطاً
بالله، وحثاً له على الالتزام بما أوصاه به دليل واضح على الاهتمام، وأنه
أكثر ما يشغل باله وهو يودع هذه الدنيا. ومن المهم البحث عما أوصاه
به.

* وللإمام تقي الدين السبكي (٦٨٣-٧٥٦هـ) وصية منظومة لولده
محمد حين توجه - أي الإمام - بصفة قاضي وناظر الركب المصري إلى
الحجاز سنة ست عشرة وسبع مئة، قال في أولها:

أبني لا تهمل نصيحتي التي أوصيك واسمع من مقالي ترشد
احفظ كتاب الله والسنن التي صحت ، وفقه الشافعي محمد
واعلم أصول الفقه علماً محكماً يهديك للبحث الصحيح الأيد
وتعلم النحو الذي يُدني الفتى من كل فهم في القران مسدد
وخذ العلوم بهمة وتفطن وقريجة سمحاء ذات توقد
وهي في «٦٣» بيتاً^(٢). ومن النافع أن يعمل الآباء على تحفيظها

(١) وفيات الأعيان (١/٢٤٦).

(٢) نشرها الأستاذ نظام يعقوبي في المجموعة الثانية من «لقاء العشر الأواخر بالمسجد
الحرام» وهذه الأبيات في (ص: ١٥).

لأبنائهم^(١).

- ومن المتابعة الدقيقة للأبناء ما فعله الإمام التابعي الجليل محمد بن

واسع البصري (ت: ١٢٠هـ)

فقد جاء عنه أنه رأى ابناً له وهو يخطر بيده - أي يمشي مختلاً -

فقال: ويحك تعال، تدري مَنْ أنت؟ أمك اشترتها بمئتي درهم، وأبوك

فلا أكثر الله في المسلمين مثله. تمشي هذه المشية؟!^(٢).

وهذا تصرفٌ تقصر عنه العبارة، وفيه تعليم رائع في التواضع،

ودرسٌ عجيبٌ في أسلوب نزع الكبر من نفس من يتكبر. فرحم الله محمد

ابن واسع، وأدبنا بأدبه.

(١) وانظر للتوسع في ذلك:

- أدب الوصايا في العصر الإسلامي للدكتورة سهام الفريح، وهو بحث منشور في مجلة

المورد العراقية، المجلد ١٣، العدد ٣ (١٩٨٤م) من ص ٢٨-٣.

- وصايا الآباء إلى أولادهم عبر عشرة قرون: دراسة ونصوص، للأستاذة سناء

ناجي المصرف (أخت المحقق المعروف الأستاذ هلال ناجي) دار الحرية للطباعة،

بغداد (١٩٩٩م) في ٢٦٩ صفحة.

- المرشد المبين في أدب البنين «وصايا وحكم» بقلم محمد بن صالح بن سليمان الخزيم،

دار الوطن للنشر، الرياض، ط ١ (١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م) في ٥٢٧ صفحة.

- أدب الوصية من الآباء للأبناء «مختارات من وصايا أندلسية مغربية موجهة للناشئة»:

جمع وتحقيق الدكتور محمد بن عزوز. دار ابن حزم، بيروت، ط ١ (١٤٢٤هـ -

٢٠٠٣م) في ٢٢٦ صفحة.

- نفائس الوصايا للدكتور أنس أحمد كرزون. دار نور للمكتبات، جدة، ط ١ (١٤٢٩هـ -

٢٠٠٨م).

(٢) صفة الصفوة (٣/ ٢٧٠).

- ومن المتابعة الدقيقة للأبناء أيضاً ما فعلته الأم الفاضلة العاقلة

الجليلة والدة جمال الدين القفطي العالم الأديب الوزير المشهور:

قال ياقوت الحموي في ترجمة القفطي (المولود سنة: ٥٦٨ بقفط في

مصر والمتوفى سنة ٦٤٦ هـ بحلب):

«وحدثني - أطال الله بقاءه - قال: كنت وأنا صبي قد قدمت

من «مصر» واستصحبت إلى «قفط» سنوراً^(١) أصبهانياً على ما تقتضيه

الصبوة، واتفق أن ولدت عدةً من الأولاد في دارنا، فنزل سنور ذكراً فأكل

بعض تلك الجراء، فغممني ذلك وأقسمتُ أن لا بدلي من قتل الذي أكلها،

فصنعت شركاً ونصبته في عليّة في دارنا وجلست، فإذا السنور قد وقع في

الحباله، فصعدت إليه ويدي عكاز وفي عزمي هلاكه، وكان لنا جيرة وقد

خرب الحائط بيننا وبينهم، ونصبوا فيه بارية إلى أن يحضر الصناع، وكان

لرب تلك الدار بنتان لم يكن فيما أظن أحسن منها صورةً وجمالاً، وشكلاً

ودلالاً، وكانتا معروفتين بذلك في بلدنا، وكانتا بكرين، فلما هممت بقتله

إذا قد انكشف جانب البارية، فوقعت عيني على ما بهر المشايخ فكيف

الشبان حسناً وجمالاً، وإذا هما تومئان إلي بالأصابع تسألاني إطلاقه.

قال: فأطلقته ونزلتُ وفي قلبي منهن ما فيه لكوني كنت أول بلوغي^(٢)،

(١) أي هراً.

(٢) ومع ذلك لم يتزوج! انظر: العلماء العزاب (ص: ١٤٣-١٤٥).

ترى هل لذلك علاقة بهذه القصة؟.

والوالدةُ جالسةٌ في الدارِ لمرضىِّ كان بها، فقالتُ لي: ما أراك قتلته كما كان
عزمك؟

فقلتُ لها: ليس هو المطلوب إنما هو سنور غيره.

فقالت: ما أظن الأمر على ذلك، ولكن بالله هل أومىء إليك بالأصابع
حتى تركته؟^(١).

فقلت: ومن يومىء إليّ؟ لا أعرف معنى كلامك.

فقالت: على ذلك يا بني اسمع مني ما أقول لك:

ثنتان لا أرضى انتهاكهما عرس الخليل وجارة الجنبِ

وكان مع هذا البيت بيت آخر أنسيته.

قال: فوالله لكان ماءً وقع على نار فأطفأها، فما صعدتُ بعد ذلك
إلى سطح ولا غرفة إلى أن فارقت البلاد، ولقد جاء الصيفُ فاحتملتُ
حره، ولم أصعد إلى سطح تلك الصيفية. ثم وجدتُ هذا البيت في أبيات
الأحوص بن محمد:

قالت - وقلت تحرجي وصلي

حبلَ امرئٍ كلفٍ بكم صب -:

صاحبُ إذن بعلي، فقلتُ لها:

الغدر أمرٌ ليس من شعبي

(١) انظر إلى هذه النباهة الرفيعة..

ثنتان لا أصبو لوصلهما
عرس الخليل وجارةُ الجنب
أما الخليل فلستُ خائنه
والجار أوصاني به ربي
الشوقُ أقتله برؤيتكم
قتلَ الظما بالباردِ العذب»^(١)

وقد اشتملت هذه الحكاية على فوائد غالية:

- فمنها: هذه النباهة والفراسة والمتابعة والدقة من الأم، مع أنها كانت مريضة!!، وإن في تصرفها تعليماً رائعاً مهماً، أن تحسن الأمهات رقابة الأبناء والبنات، ويعرفن ويقرأن ما يدور بأذهانهم، وما يدور حولهم.
- ومنها: حياء الابن من أمه، إذ كتم عنها ما رأى، ولم يفصح لها بما رأى وما اعتمل في نفسه من جراء تلك الرؤية.
- ومنها: عدم استرسال الوالدة في الحديث عن أمر يخرج الابن، ويضطره إلى الكشف عن أمر يخدش الحياء تجاه والديه.
- ومنها: حسن تصرف الوالدة بذكر بيت شعر يلخص المطلوب من الابن في حق أسرته، وفي حق الجيران، وتذكيرها بهذا الحق الكبير.
- ومنها: ما تدل عليه من العلاقة الوثيقة بين الأم والابن والاحترام

(١) معجم الأدباء (٥/٢٠٢٣-٢٠٢٤).

الشديد، والنصيحة المخلصة المؤثرة، بحيث كفى بيتٌ شعرٍ استشهدتُ به أن يطفئَ جمرًا توقد بين جنبيه، وحمله على تحمل حر الصيف، وعدم صعوده إلى السطح مرة أخرى.

- ومنها: استذكار الابن هذا الموقف وروايته له وهو في سن متقدمة، وجاه عريض، وشواغل صارفة، فإنه يرويه لياقوت الحموي، وكان أول اجتماعهما في حلب سنة ٦٠٩ وللقفطي (٤١) سنة^(١).

- ومنها: تتبع هذا البيت الشعري الذي سمعه الابن من أمه حتى عرف قائله، والقصيدة التي ورد فيها، وهو يدل على حب الفائدة وتتبعها وحفظها. وعثور القفطي على البيت وفيه شيء من الخلاف قد يدل على أن أمه حورت فيه ليلائم الموقف، فبدلاً من أن تقول:

ثنتان لا أصبو لوصلهما

قالت: ثنتان لا أرضى انتهاكهما. وهذا أشد وقعاً، وأكثر تحذيراً.

(١) انظر: إنباه الرواة (٤ / ٨١).

تعليمهم أدب الكلام

مما أبدعت فيه الأسرة المسلمة أيما إبداع، وسبقت فيه السابقين تعليم أبنائها أدب الكلام، في العلم والعمل، والدين والدنيا، والأخذ والرد، والبيع والشراء، وفي سائر أحوالهم، وأدب الكلام أدب رفيع، يأتي بين الآداب المطلوبة في الذروة، وله أثر عظيم في حياة الإنسان بكل تفاصيلها.

وقد كان للحديث عن اللسان في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم موضع كبير، جدير بنا الاهتمام به، والتفتيش عنه، والحرص عليه.

وَأَلَّفَ الْعُلَمَاءُ فِي ذَلِكَ مَوَافَاتٍ مَفْرَدَةً قِيَمَةً، وَتَنَاولُوا الْمَوْضُوعَ فِي كُتُبِ جَامِعَةٍ أُخْرَى، وَتَرَاثَنَا غَنِيٌّ بِذَلِكَ غَنَى ظَاهِرًا.

والأسرة المسلمة وعت أهمية هذا السلوك في حياة أبنائها فأولته اهتماماً شديداً، وكانت تتابع الأبناء في ألفاظهم، وتدقق عليهم في ذلك، ليتعلموا ويتبهاوا، ويحسنوا القول، ويحترزوا من مغبة التفريط، وهي على ذكر من قول لقمان لابنه ﴿وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾^(١).

(١) من سورة لقمان، الآية: ١٩.

- فمن ذلك ما جاء عن التابعي العالم الصالح المخبت الأجلّ الربيع

ابن خثيم، أحد أصحاب عبد الله بن مسعود، (ت سنة: ٦٢ هـ):

عن الربيع بن منذر قال: «سمعت أبي يقول: كان عند الربيع بن

خثيم رهط فجاءته ابنته فقالت: يا أبتاه أذهب ألعب؟

فقال: اذهبي فقولي خيراً. غير مرة.

فقال القوم: أصلحك الله، وما عليك أن تقول لها [اذهبي والعبي].

فقال: وما عليّ أن لا يكتب هذا في صحيفتي».

وثم رواية أخرى تكمل هذه الرواية وتشرحها:

عن أم الأسود قالت: كانت ابنة الربيع بن خثيم تأتيه فتقول: يا أبتاه

اأذن لي ألعب.

فيقول: يا بنية قولي خيراً.

فتلقنها أمها وتقول لها: قولي: أتحدث.

فيقول الربيع [إذا سئلت عن ذلك]: إني لم أسمع الله رضي لأحد

اللعب^(١).

فالربيع هذا التابعي الجليل المخبت الأثير عند عبد الله بن مسعود، لا

(١) صفة الصفوة (٣/٦٤).

يتساهل في هذا اللفظ، ولا يريد إقرار ابنته عليه، فقد كانت حياته كلها جداً، وهو يعلم أن لفظ (اللعب) جاء في القرآن في معرض الذم، فلا يقره ولا يريد لأحد من أسرته أن يستعمله. وهذه دقة بالغة، ودرس عظيم لنا أن ننتبه لألفاظ أولادنا والمفردات التي يستعملونها في حياتهم اليومية، فلهذه المفردات أثر في سلوكهم، وهي دليل على سلوكهم أيضاً. وموقف الربيع هذا نابع من حاله هو وتدقيقه في الملفوظات، فقد جاء عنه أنه قال لرجل: لا تَلَفِّظْ إلا بخير، فإن العبد مسؤول عن لفظه، يحصى ذلك عليه كله ﴿أَحْصَنُ اللَّهُ وَسُوهُ﴾^(١).

وقال إبراهيم التيمي: أخبرني مَنْ صحب الربيع عشرين عاماً ما سمع منه كلمة تعاب^(٢).

- وجاء عن التابعي الجليل أحد فقهاء المدينة القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق (ولد سنة ٣٦ أو ٣٨ وتوفي سنة: ١٠٨ هـ) ما يأتي:
«عن سفيان قال: اجتمعوا إلى القاسم بن محمد في صدقة قسمها وهو يصلي، فجعلوا يتكلمون - أي كأنهم يعترضون على القسمة -، فقال ابنه: إنكم اجتمعتم إلى رجلٍ والله ما نال منها درهماً ولا دانقاً. فأوجز القاسم في صلاته ثم قال: يا بني، قل: فيما علمتُ.

(١) صفة الصفوة (٦٧/٣)، والآية من سورة المجادلة، الآية: ٦.

(٢) صفة الصفوة (٦٠/٣).

قال سفيان راوي الخبر شارحاً مراداً: صدق ابنه، ولكنه أراد تأديبه في النطق وحفظه»^(١).

فالقاسم - رحمه الله - علّم ابنه بهذا الموقف الاحتياطي الذي يجب على المتكلم أن يراعيه، حين يتحدث عن أمور خفية في حياة الآخرين، وقد أوجز في صلاته ليضيف إلى عبارة ابنه هذا القيد المهم في الكلام، وهو «فيما علمت» فما أحسن أن يتحرز الإنسان في كلامه، وأن يحتاط لنفسه؟ ولم يكن هذا الموقف هو الموقف الوحيد من القاسم، بل كان يتابع ابنه دائماً، حتى وهو في لحظاته الأخيرة في هذه الدنيا، فقد أوصى ابنه أن يقتصد في كلامه عن أبيه، وأن لا يبالغ في حديثه وثنائه عليه.

قال رجاء بن أبي سلمة: مات القاسم بن محمد بين مكة والمدينة حاجاً أو معتمراً فقال لابنه [أي حين الموت]: سُنَّ عليّ التراب سنّاً، وسوّ عليّ قبري، والحق بأهلك، وإياك أن تقول كان وكان»^(٢).

فهو لا يريد له أن يملأ فمه بالحديث عنه والتفاخر به وبأعماله، وهذا درس كبير عظيم في التواضع وهضم النفس ونكران الذات - كما يقال اليوم - والبعد عن الفضول وتضخم الأنا، وهذه هي أخلاق السلف.

(١) صفة الصفوة (٢/ ٨٩).

(٢) صفة الصفوة (٢/ ٩٠).

واليوم يعاني كثير من أبناء العلماء والصلحاء من عقدة التفاخر والتباهي بسلفهم، وقد يتعالى البعض على الناس بذلك تعالياً ممقوتاً مذموماً، ولو سلكوا سلوكهم وعملوا عملهم لتأدبوا بأدبهم، وتواضعوا كتواضعهم، وتركوا الناس يتحدثون عن مفاخرهم قبلهم. وكان الآباء إذا عرفوا أحداً يتوقى في كلامه، ويراقب ربه فيما يقول، وجهوا أولادهم ليتعلموا منه هذا الخلق العالي.

- قال السليط بن بسطام التميمي:

قال لي أبي: الزم عبد الملك بن سعيد بن أبجر فتعلم منه توقيه في الكلام، فما أعلم بالكوفة أشد حفظاً للسانه منه^(١). وكان عبد الملك من شدة التوقي يقول عنه مَنْ لا يعرفه: إنه عيي، وما به إلا شدة التوقي، ولهذا كان إنما يتكلم بالمعاريض^(٢)، وهو من التابعين، توفي سنة (١٥٠هـ)^(٣).

- ومن ذلك ما فعله الإمام تقي الدين السبكي (ت: ٧٥٦هـ):

قال ولده تاج الدين عبد الوهاب في كتابه الترشيح: «كنت يوماً في

(١) صفة الصفوة (٣/١٢٣).

(٢) صفة الصفوة (٣/١٢٢-١٢٣) والمعاريض لون من التورية بالشيء عن شيء آخر.

(٣) انظر تاريخ الإسلام (٩/٢٠٩).

دهليز دارنا في جماعة، فمر بنا كلبٌ يقطر ماءً يكاد يمس ثيابنا، فنهرته
وقلت: يا كلب يا ابن الكلب، وإذا بالشيخ الإمام - يعني والده الشيخ
تقي الدين السبكي - يسمعنا من داخل، فلما خرج قال: لم شتمته؟ فقلت:
ما قلت إلا حقاً، أليس هو بـكلب ابن كلب؟ فقال: هو كذلك، إلا أنك
أخرجت الكلام في مخرج الشتم والإهانة، ولا ينبغي ذلك.

فقلت: هذه فائدة، لا ينادى مخلوق بصفته إلا إذا لم يخرج مخرج
الإهانة»^(١).

وهذه دقة عجيبة من الإمام تقي الدين إذ لحظ مخرج الكلام من ابنه،
وجعل من ذلك فرصة لينصحه، ويبين له حكماً شرعياً رائعاً في صفة
النداء سواء كان لإنسان أو لحيوان!!

(١) الحاوي للفتاوي (١/ ٣٧٤)، والخبر في إتحاف السادة المتقين (٧/ ٥٥٦) باختصار.

العمل على تكوين شخصيتهم الاجتماعية

كانت الأسرة المسلمة حريصة على الاحتفاء بالأبناء حين ولادتهم، وعند ظهور مواهبهم، وتحقق بعض الإنجازات في حياتهم، مما يؤسس لشخصيتهم الاجتماعية، ويعرف بهم، ويكوّن منزلة لهم، وكل ذلك نابع من الهدى الإسلامي الرشيد، وأضرب على ذلك بعض الأمثلة:

- جاء في ترجمة عبد الرحمن بن أبي بكره الثقفي (ت: ٩٦هـ)، وهو أول مولود ولد بالبصرة ما يأتي:

«قال ابن سعد: نحروا جزوراً يوم مولده وهم بالخريبة^(١)، فكفتهم، وكانوا قدر ثلاث مئة رجل»^(٢).

فانظر إلى عقيقة يحضرها ثلاث مئة رجل، وكم في ذلك من الاهتمام والرعاية وإظهار الفرح بهذا المولود، والتعريف به!

هذا عند الولادة، فأما عند التعلم والحذق فقد وردنا هذا الخبر:

- قال عبد الله بن الحسن بن علي لأبيه: إن ابني فلاناً حذق^(٣)، فقال

(١) الخريبة: موضع بالبصرة. معجم البلدان (٢/٣٦٣).

(٢) تاريخ الإسلام (٧/١٤٤)، والطبقات الكبرى (٧/١٩٠).

(٣) جاء في لسان العرب (٤/٦٦): «الحذق والحذاقة: المهارة في كل عمل... قال أبو زيد: حذق الغلام القرآن والعمل... مهر فيه... ويقال لليوم الذي يتختم فيه الصبي القرآن: هذا يوم حذاقه».

الحسن (ت: ٩٧هـ): كان الغلام إذا حذق قبل القوم نحروا جزوراً،
وصنعوا طعاماً للناس^(١).

إن نحر الجزور (الجمل)، وإطعام الناس، والاحتفاء بالغلام، يترك
في نفسه من الآثار ما لا تمحوه الأيام.

(١) العيال (١/٤٨٩).

ربطهم بالله سبحانه وتعالى

أعظم شيء في هذه الدنيا أن يرتبط قلب الإنسان بربه، ويكون دائم المراقبة له، عظيم الخشية منه، موفور الحياء من حضرته.

وقد سعت الأسرة المسلمة إلى إيجاد هذا القلب العامر بالتقوى والمراقبة، وأذكر هنا بعض ما وردنا في ذلك:

- من أئمة المسلمين صاحب التصانيف الكثيرة أبو عبد الرحمن السلمي: محمد بن الحسين (٣٢٥-٤١٢هـ):

هذا الإمام فرح به أبوه لما ولد جِدًّا، فقد باع ما عنده وتصدق به^(١)، وهذه أولى درجات الربط بالله سبحانه.

وقالت له أمه حين توجهه إلى الحج: توجهت إلى بيت الله، فلا يكتبن عليك حافظاك شيئاً تستحي منه غداً^(٢).

فلننظر إلى عظم هذا القول، وسداد هذا التوجيه!

ولإقامة الرابطة بالله تعالى على أسس متينة فقد كانوا يتابعونهم في شأن صلاتهم، ويسألونهم عنها:

- جاء عن التابعي القاضي شريح بن الحارث (ت: ٧٦هـ) أنه افتقد

(١) مقدمة طبقات الصوفية (ص: ١٧) والمحقق ينقل من نفحات الأنس من حضرات القدس للجامي باللغة الفارسية، وقد طبعت النسخة المترجمة إلى العربية، انظر (١/٤٤٤).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٧/٢٤٩).

ابنأله، فبعث في طلبه، فقال لطالبه: أين وجدته؟ فقال: كان يهارش بالكلاب، فقال له: صليت؟ قال: لا. فقال للرسول: اذهب به إلى المؤدب في الكُتّاب وقل له:

تَرَكَ الصَّلَاةَ لِأَكْلِبِ يَسْعَى لَهَا طَلَبَ الْمِرَاشَ مَعَ الْغَوَاةِ النَّحْسِ
فَإِذَا أَتَاكَ فَعَضَهُ بِمَلَامَةٍ وَعَظَنَهُ مَوْعِظَةَ الْأَدِيبِ الْكَيْسِ
وَإِذَا هَمَمْتَ بِضَرْبِهِ فَبَدْرَةٌ وَإِذَا ضَرَبْتَ بِهَا ثَلَاثًا فَاحْبِسْ
وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ مَا أَتَيْتَ فَنَفْسُهُ - مَعَ مَا يَجْرَعْنِي - أَعَزُّ الْأَنْفُسِ^(١)
وكانوا يعلمونهم كيف يصلون:

- عن معاوية بن قرّة قال: قال معاذ بن جبل (ت: ١٨هـ) لابنه: يا بني إذا صليت فصلّ صلاة مودّع لا تظن أنك تعود إليها أبداً، واعلم يا بني أن المؤمن يموت بين حسنتين، حسنة قدمها، وحسنة آخرها^(٢).
وكانوا يحثونهم على قيام الليل، وقد ورد عنهم في ذلك هذه الأخبار والصور:

- كان علي زين العابدين بن الحسين (ت: ٩٤هـ) يقوم بالليل ويقول:
يا بني ليس هذا عليكم بواجب، ولكن أحب لمن عود نفسه منكم عادة من الخير أن يدوم عليها^(٣).

(١) صفة الصفوة (٣/ ٣٩-٤٠)، ونظرت إلى عبارة حلية الأولياء (٤/ ١٣٦).

(٢) صفة الصفوة (١/ ٤٩٦).

(٣) صفة الصفوة (٢/ ٩٥).

- وقال عبد الرحمن ابن التابعي الجليل الصالح زبيد بن الحارث

اليامي (ت: ١٢٢هـ):

«كان زبيد - يعني أباه - قد قسم علينا الليل أثلاثاً، ثلثاً عليه، وثلثاً

عليّ، وثلثاً على أخي.

فكان زبيد يقوم ثلثه، ثم يضر بني برجله، فإذا رأى مني كسلاً قال:

نم يا بني فأنا أقوم عنك.

ثم يجيء إلى أخي فيضربه برجله، فإذا رأى منه كسلاً قال: نم يا بني

فأنا أقوم عنك. فيقوم حتى يصبح^(١).

- وكان سليمان بن طرخان (ت: ١٤٣هـ) وابنه المعتمر يدوران بالليل

في المساجد فيصليان مرة في هذا المسجد، ومرة في هذا حتى يصبحا^(٢).

- وجاء عن زمعة بن صالح الجندي المكي ما يأتي:

عن القاسم بن راشد الشيباني قال: كان زمعة نازلاً عندنا، وكان له

أهل وبنات، وكان يقوم فيصللي ليلاً طويلاً، فإذا كان السحر نادى بأعلى

صوته:

يا أيها الركبُ المعرّسونا أكلّ هذا الليل ترقدونا

ألا تقومون فترحلونا

(١) صفة الصفوة (٣/٩٨).

(٢) صفة الصفوة (٣/٢٩٦).

فيتواثبون، فيسمع من هاهنا باكٍ، ويسمع من هاهنا داعٍ، ومن هاهنا قارىء، ومن هاهنا متوضىء، فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته: عند الصباح يحمد القومُ السرى^(١).

- وقال إبراهيم ابن الإمام وكيع بن الجراح الكوفي (توفي وكيع سنة ١٩٧هـ):

كان أبي يصلي الليل، فلا يبقى في دارنا أحد إلا صلى، حتى إن جارية لنا سوداء تصلي^(٢).

- وقال الإمام تاج الدين السبكي في ترجمة والده الإمام تقي الدين: «كان الشيخ الإمام - رحمه الله - ينهانا عن نوم النصف الثاني من الليل، ويقول لي: يا بني تعوّد على السهر ولو أنك تلعب، والويل كل الويل لمن رآه نائماً وقد انتصف الليل...»^(٣).

- ومن ذلك ما يحكيه الأديب مصطفى صادق الرافعي (ت: ١٣٥٦هـ) عن أبيه الذي كان كبير القضاة الشرعيين في دمنهور «بمصر»، وكان من عادته أن يعتكف كل سنة في أحد المساجد عشرة الأيام الأخيرة من شهر رمضان.

(١) صفة الصفوة (٢/ ٢٢٩-٢٣٠).

(٢) صفة الصفوة (٣/ ١٧١).

(٣) طبقات الشافعية الكبرى (١٠/ ١٧٧)، وانظر (١٠/ ٢٠٣).

يقول الرافعي: «وذهبت ليلة - وكان حينها في العاشرة من العمر - فبت عند أبي في المسجد، فلما كنا في جوف الليل الأخير أيقظني للسحور، ثم أمرني فتوضأت لصلاة الفجر، وأقبل هو على قراءته، فلما كان السَّحْرُ الأعلى هتف بالدعاء المأثور...»، ويسترسل الرافعي في وصف هذه الساعة وما فيها من صفاء وصلاة وتلاوة وصفاً عجباً... وذلك قبل موته بثلاثة أشهر... مما يدل على أثر تلك الليلة في نفسه طوال عمره... ولا أستبعد أن مبيته عند أبيه كان بتخطيط منه... ومهما يكن فقد كان لإيقاظه ابنه وأمره بالوضوء والصلاة ما يدلنا على حسن رعايته وجميل غايته^(١).

وكانوا يذكرونهم بالموت، والقدوم على الله تعالى:

- فقد جاء عن أم ضيغم بن مالك، أنها قالت له ذات يوم: ضيغم!

قال: لبيك يا أماه.

قالت: كيف فرحك بالقدوم على الله؟

فصاح صيحة لم يسمعه أهله صاح مثلها قط، وسقط مغشياً عليه،

فجلست أمه تبكي عند رأسه وتقول: بأبي أنت ما نستطيع أن نذكر بين

يديك شيئاً من أمر ربك^(٢).

(١) انظر لزاماً «قرآن الفجر» في: وحي القلم (٣/ ٢٨-٣١).

(٢) صفة الصفوة (٣/ ٣٥٨)، وشم روايتان أخريان تسأله فيها عن الموت هل يجبه؟ فانظرهما.

ومن ذلك وصيتهم لهم أن يكون فرحهم بالله سبحانه:

- قالت أم أحمد بنت عائشة بنت الشيخ أبي عثمان سعيد بن إسماعيل

الخيرى النيسابورى (ماتت عائشة سنة ٣٤٦هـ):

قالت لي أمي: لا تفرحي بفان، ولا تجزعي من ذاهب، وافرحي بالله

عز وجل، واجزعي من سقوطك من عين الله عز وجل.

وقالت لي: الزمي الأدب ظاهراً وباطناً، فما أساء أحد الأدب في الظاهر

إلا عوقب ظاهراً، ولا أساء أحد الأدب باطناً إلا عوقب باطناً^(١).

وكانوا يُحضر ونهم مجالس ختم القرآن الكريم لتعود عليهم بركة

ذلك:

- قال محمد ابن العالم الزاهد المرابط زهير بن محمد بن قمير المروزي

البغدادى (توفى سنة ٢٥٧هـ):

كان أبي يجمعنا في وقت ختمة القرآن في شهر رمضان، في كل يوم

وليلة ثلاث مرات، تسعين ختمة في شهر رمضان^(٢).

وكانوا إذا وقع أمر فيه عبرة، ودلالة على ورع وزهد وخوف من الله

تعالى لفتوا أنظار أبنائهم إليه، ليعوه ويتعلموه ويحدثوا به.

(١) صفة الصفوة (٤/١٢٥).

(٢) صفة الصفوة (٢/٤٠٠).

- قال الحسين بن محمد بن عبيد العسكري:

أريد أبو علي ابن خيران - العالم الجامع بين الفقه والورع المتوفى في حدود (٣٢٠هـ) - أريد لمنصب قضاء القضاة، فامتنع، فوكل علي بن عيسى الوزير بباب داره حرّاساً، فشاهدت الموكلين ببابه، وختم الباب بضعة عشر يوماً - وهو لا يظهر - فقال لي أبي: يا بني انظر حتى تحدّث بهذا إن عشت، إن إنساناً فعل هذا به ليلي القضاء فامتنع. وكلم الوزير فيه فأعفاه^(١).

فمحمد بن عبيد العسكري يريد من ابنه أن يعي هذه الحادثة، ويحفظها، ويتحدث بها، ومن وراء هذا أن يستفيد منها هو في أن لا يترامى على المناصب، ويذهب عمره في طلبها والحرص عليها والقتال من أجل الوصول إليها...

وكان من منهج السلف كتمان عبادتهم النافلة وكتمان حالهم مع الله تعالى كتماناً شديداً، ولكنهم كانوا يظهرون عبادتهم وحالهم لأولادهم ولا سيما عند الموت، ويخيل لي أن هذا كان منهم عن قصد، وهو تعليمهم وتحفيزهم ليقعدوا بهم ويسيروا على طريقهم، وأذكر من هذا ما وقفت عليه، وأبدأ ب:

(١) صفة الصفوة (٢/ ٤٥٠).

١ - التابعي الربيع بن خيثم (ت: ٦٢ هـ):

قالت له ابنته: يا أبتاه مالي أرى الناس ينامون ولا تنام؟ قال: إن جهنم لا تدعني أنام.

وفي رواية: يا بنية إن أباك يخاف البيات^(١) أي أن يؤخذ وهو نائم.

٢ - وعن الشعبي قال: عُشي على مسروق بن الأجدع الهمداني الكوفي (توفي سنة ٦٣ هـ) في يوم صائف وهو صائم. فقالت له ابنته: أفطر. قال: ما أردت بي؟ قالت: الرفق. قال: يا بنية إنما أطلب الرفق لنفسي في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة^(٢).

٣ - ودعا سعيد بن جبير ابنه حين دُعي ليقتل (سنة ٩٥ هـ) فجعل ابنه يبكي، فقال: ما يبكيك؟ ما بقاء أبيك بعد سبع وخمسين سنة؟^(٣) فهو يكشف عن حاله في الرضى عن الله، ويعلمه هذا الحال.

٤ - وقال محمد بن ثابت البناني: ذهبْتُ ألقنُ أبي وهو في الموت (توفي بعد ١٢٠ هـ) فقلت: يا أبة، قل: لا إله إلا الله. فقال: يا بني خل عني فإني في وردي السادس أو السابع^(٤).

(١) صفة الصفوة (٣/ ٦٣-٦٤).

(٢) صفة الصفوة (٣/ ٢٦).

(٣) صفة الصفوة (٣/ ٨٠).

(٤) صفة الصفوة (٣/ ٢٦٣).

٥- وقال حسين بن عمرو العنقزي: لما نزل بعبد الله بن إدريس الموت، بكت ابنته، فقال: لا تبكي فقد ختمت القرآن في هذا البيت أربعة آلاف ختمة^(١).

وعبد الله بن إدريس حافظ ورع زاهد، توفي سنة (١٩٢هـ).

٦- وقال إبراهيم بن أبي بكر بن عياش: بكيت عند أبي حين حضرته الوفاة. فقال: ما يبكيك؟ أترى الله يضيع لأبيك أربعين سنة، يختم القرآن كل ليلة^(٢)، وتوفي أبو بكر سنة (١٩٣هـ).

٧- وعن أبي بكر النيسابوري قال: حضرت إبراهيم بن هانئ - العالم العابد - عند وفاته - توفي سنة (٢٦٥هـ) - فقال لابنه إسحاق: أنا عطشان. فجاءه بقاء. فقال: غابت الشمس؟ قال: لا. قال: فرده. ثم قال: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَمِلُونَ﴾^(٣) ثم خرجت روحه^(٤).

وفي رواية أخرى أن الابن قال له: يا أبة رخص لك في الإفطار في الفرض، وأنت متطوع. قال: امهل. ثم قال: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَمِلُونَ﴾^(٥) ثم خرجت نفسه.

(١) صفة الصفوة (٣/ ١٧٠).

(٢) صفة الصفوة (٣/ ١٦٦).

(٣) من سورة الصافات، الآية: ٦١.

(٤) صفة الصفوة (٢/ ٤٠١).

(٥) السابق.

وكانوا يعلمونهم الدعاء الذي يربطهم بالله دائماً:

أ- قال شيخنا الأستاذ الشيخ أبو الحسن الندوي (ت: ١٤٢٠ هـ)

رحمه الله تعالى:

«ولما بدأت أشدو وأكتب نصحتني والدتي، وأكدت الأمر بأن أبدأ كلَّ ما أكتب بـ: بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم آتني بفضلك أفضل ما تزوّتي عبادك الصالحين. وقد بقي ذلك عادي وديّني مدةً من الزمان، ولا أزال أذكر في مناسبات كثيرة هذه الكلمات الصالحات»^(١).

ومن الجميل أن تقرأ سيرة هذا الشيخ الجليل، لتنظر كيف آتاه الله بفضلته أفضل ما آتى عباده الصالحين. هذا في الدنيا، والأمل بالله أن يؤتية ذلك في الآخرة، لقاء ما قدّم لدينه وأمته^(٢).

(١) في سيرة الحياة (١/ ٧٥).

(٢) كتب عن الشيخ الكثير، ومن ذلك - غير ما كتبه هو في كتابه: في سيرة الحياة -:

١- أبو الحسن علي الحسيني الندوي الإمام المفكر الداعية الأديب للسيد عبد الماجد الغوري، ط دار ابن كثير بدمشق، ط ١ (١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م).

٢- أبو الحسن علي الحسيني الندوي الداعية الحكيم والمربي الجليل للأستاذ محمد اجتباء الندوي، ط دار القلم بدمشق، ط ١ (١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م).

٣- الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته للعلامة يوسف القرضاوي، ط دار القلم بدمشق، ط ١ (١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م).

٤- الشيخ أبو الحسن الندوي: بحوث ودراسات أعدت بمناسبة تكريمه في المؤتمر الرابع للهيئة العامة لرابطة الأدب الإسلامي العالمية سنة (١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م) المنعقد في استانبول، مكتبة العبيكان، ط ١ (١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م)، في (٦٣٢) صفحة.

٥- أبو الحسن الندوي العالم المربي والداعية الحكيم للأستاذ محمد أكرم الندوي، ط دار القلم بدمشق، ط ١ (١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م).

وفي هذا المجال يطيب لي أن أورد أبياتاً جميلة عن كينونة الأولاد مع الله وغناهم به للشيخ الداعية الجليل معوض عوض إبراهيم، سمعتها منه، وقرأتها في كتابه النافع «الأولاد ودائع الله عندنا»، وأنا أنقلها مع تقديم الشيخ لها إذ يقول: «ومعذرة وأنا أورد هنا خاطراً طاف بي وأنا في قطر من أقطار أمتنا الإسلامية في ليلة كنت أعكف فيها على كتاب الله أتلوه وأتأمله، فلما بلغت من قراءتي قول الله على لسان زكريا عليه السلام: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٩) تذكرت أولادي، وكنت نازح الدار بعيد المنزل منهم فقلت:

لا تذرني يا ربَّ فرداً وهب لي في بني الهدى وغالي النجابه
 إنهم ثروتي وأزري فدعهم من شباب الإسلام بين الذؤابه
 يحفظونَ العرينَ والدينَ ما عا شوا ويحيون في كمال الصحابه
 ليس يُغلي بنيَّ عندي إلا أن يكونوا في الحق أسد الغابه
 وسواءً عليَّ بعدُ أخلف ست ثراءً أم رحْتُ دون صُبابه
 فغناهم بالله يُسعدُ قلبي وأرى ما سواه عدل ذبابه»^(١)

(١) الأولاد ودائع الله عندنا (ص: ٣٨-٣٩). وقد أكرمني الله بزيارة الشيخ في منزله في القاهرة مساء السبت ٢٥ / ٥ / ١٤٣١، بصحبة إخوة أعزاء، وتفضل بإهداء هذا الكتاب، ووشاه بإهداء جميل بخطه - مع أنه غير ممتع بالبصر الآن -، والشيخ أكبر خريج أزهرى اليوم، فهو من مواليد سنة ١٣٣٢، حفظه الله وبارك في وجوده.

وهي - كما نرى - أبيات تقطر عاطفة وحباً، وتفيض بالمعاني السامية
الرفيعة، وما أحسن أن يفضّل الآباء غنى الأبناء بالله على كل أنواع الغنى،
فهذا غنى دائم، وذاك غنى موهوم زائل.

إعانتهم على سبيل الخير

إن الأبناء أحوج ما يكونون إلى الإعانة على سبيل الخير، والعمل بالعلم، والقيام بحق العلم والدين، وكان للأسرة المسلمة في ذلك آثار معجبة مدهشة، أذكر منها هذا الخبر الدال:

كان الصحابي الجليل عتبة بن فرقد يتولى الولايات، ويجتهد بابنه عمرو أن يدخل معه ويعينه في ذلك، فلا يفعل زهداً في الدنيا، وإقبالاً على الآخرة.

ومن أخباره في ذلك أن أباه عتبة - رضي الله عنه - قال لصديقه عبد الله بن ربيعة: يا عبد الله ألا تعينني على ابن أخيك - يقصد ابنه عمراً - وتكلمه في أن يعينني على ما أنا فيه من عمل؟

فقال له عبد الله: يا عمرو أطع أباك. فنظر عمرو إلى الرجل العابد الزاهد معضد العجلي^(١) وكان جالساً معهم، فقال له معضد وقد فهم سر تلك النظرة: لا تطعمهم واسجد واقرب. ومن الواضح أن معضداً رأى همّة عمرو في العبادة وإقباله على مولاه فأراد له المضي في ذلك. فقال عمرو: يا أبت إنما أنا عبد أعمل في فكاك رقبتني من النار، فدعني أعمل في ذلك. فبكى والده متأثراً بقول ابنه وقال: يا بني إني لأحبك حيناً حباً

(١) انظر ترجمته في صفة الصفوة (٣/٤٣) وغيره.

لله، وحب الوالد لولده.

وكان عتبة قد أتاه بهال كثير، فقال له عمرو: يا أبت إنك قد كنت أتيتني بهالٍ قد بلغ سبعين ألفاً، فإن كنت سائلي عنه فهو ذا فخذ، وإلا فدعني فأمضيه وأصرفه في مصارفه.

فقال له عتبة: فأمضه كما شئت. فأمضاه فما بقي منه درهماً^(١).

وقد ختم الله لعمرو بالشهادة فارجع إلى سيرة حياته واقرأها فهي سيرة عاطرة^(٢).

(١) حلية الأولياء (٤/١٥٩)، وتاريخ الإسلام (٥/٤٩٤) وفيه (٥/٤٩٥-٤٩٦) أنه من «طبقة أبي وائل وشريح وعلقمة ومسروق، والقدماء من حيث الوفاة»، والمتنظم (٤/٣٤٩) وذكره في وفيات سنة ٢٥هـ. وقد تصرف في النقل.

(٢) انظر كذلك: صفة الصفوة (٣/٦٨-٧٢).

تلبية متطلبات الفطرة والغريزة

وعت الأسرة المسلمة أهمية هذا الجانب في التربية فأولته كامل اهتمامها، وبادرت إليه، وبذلك حصنت الأبناء من شر مستطير، وداء وبيل.

- قال سعيد بن العاص (ت: ٥٨هـ):

إذا عَلَّمْتُ ولدي القرآن، وحججته، وزوجته، فقد قضيت حقه، وبقي حقي عليه^(١).

- وقال عبد الله بن عباس (ت: ٦٨هـ) رضي الله عنهما:

مَنْ رزقه الله ولداً فليحسن اسمه، وتأديبه، فإذا بلغ فليزوجه^(٢).

- وقال الإمام قتادة بن دعامة السدوسي (ت: ١١٧هـ):

كان يقال: إذا بلغ الغلام فلم يزوجه أبوه فأصاب فاحشة أثم الأب^(٣).

- وقال الإمام سفيان الثوري (ت: ١٦١هـ):

كان يقال: حق الولد على والده أن يحسن اسمه، وأن يزوجه إذا بلغ،

(١) العيال (١/ ٣٣٤)

(٢) العيال (١/ ٣٣١ و ٤٨٣).

(٣) العيال (١/ ٣٣٣).

وأن يحججه، وأن يحسن أدبه^(١).

إن في الزواج المبكر فوائد كثيرة، وفيه قضاء على فساد كبير، وضياع كثير، واشتغال القلب بمتطلبات الغريزة يشتمه ويصدّه عن الاشتغال بالعلم وطلبه وتحصيله وتنميته إلا ما شاء الله.

واليوم أصبح للزواج قيود ورسوم، وأصبح التبكير به نادراً، ولا يستطيعه من إرادته، والله المستعان.

(١) العيال (١/٣٣٢).

بُرْهُم ورعاية مشاعرهم

كان الآباء يعاملون أبناءهم بالبر واللطف، ورعاية مشاعرهم، وتطبيب نفوسهم، وإدخال السعادة على قلوبهم، كما يحبون أن يعاملوهم، وهذا قمة العدل والشعور بالمسؤولية وتنمية الشخصية، وتأمل هذا الخبر المعجب:

- قال يحيى بن يمان: خرجت إلى مكة، فقال لي سعيد بن سفيان [الإمام الحافظ الكبير الثوري الكوفي]: أقرىء أبي السلام وقل له يقدم. فلقيني سفيان بمكة فقال: ما فعل سعيد؟ قلت: صالح^(١)، وهو يقول لك: أقدم. فتجهز للخروج وقال: إنما سموا الأبرار لأنهم بروا الآباء والأبناء^(٢). وهذا القول رواه الإمام البخاري بسنده عن الصحابي الجليل عبد الله ابن عمر قال: إنما سماهم الله أبراراً لأنهم بروا الآباء والأبناء، كما أن لوالدك عليك حقاً، كذلك لولدك عليك حق^(٣).

وهذا قول رائع فيه إنصاف للطرفين، وتوزيع للحقوق بلا مِئِن، ولو استشعر الأب والابن أن على كل واحدٍ منهما حقاً، ولكل منهما حقاً، وأدى كل منهما ما عليه، لرأينا أسراً متماسكة سعيدة، وعلاقات متشابكة سديدة، وسروراً ينجيم على البيوت، وأنساً يفترش القلوب.

(١) أي هو بخير..

(٢) انظر العيال (١/٣٢٢)، والجرح والتعديل (١/١٢٥) باب ما ذكر من بر سفيان لأبيه! [كذا والصواب: لابنه]، وحلية الأولياء (٧/٨١).

(٣) (الأدب المفرد) (ص: ٤٧) برقم (٩٤) باب بر الأب لولده.

هذا، وقد قال الإمام ابن عبد البر الأندلسي (ت: ٤٦٣ هـ) بعد أن قال: «وبر الوالدين فرض لازم» وذكّر صور البر:

«وحقّ عليهما - أي الوالدين - أن يعيناه على برّهما بلين جانبهما، وإرفاقه بذات أيديهما، فما وصل العباد إلى طاعة الله، وأداء فرائضه إلا بعونه لهم على ذلك»^(١).

وهذا تشبيه لطيف، فكما أن العباد لا يصلون إلى طاعة الله إلا بعونه، فكذلك الأولاد لا يصلون إلى البر المطلوب إلا بعون الوالدين لهم، ومساعدتهم، وتقدير ظروفهم وأحوالهم.

ومن يضرب به المثل فيما ينبغي أن يكون عليه البر ورعاية المشاعر التابعي الجواد الصالح محمد بن سوقة الكوفي، فقد جاء عنه أن ابن أخ له طلب منه شيئاً، فبكى، فقال له: والله يا عم لو علمت أن مسألتني تبلغ منك هذا ما سألتك.

قال: ما بكيت لسؤالك، إنما بكيت لأنني لم أبتدئك قبل سؤالك^(٢).

فأي قلب رقيق كان بين جوانح هذا الرجل، بحيث بكى لشعوره بتقصيره عن بر ابن أخيه، وعدم مبادرته إلى ذلك؟.

(١) الكافي في الفقه على مذهب أهل المدينة (٢/٥٥٩).

(٢) صفة الصفوة (٣/١١٧).

تعليمهم اختيار الأصدقاء

كان من هم الأسرة المسلمة اختيار الأصدقاء للأبناء، ولننظر في هذه الوصية الرائعة التي وصى بها عليّ زين العابدين (ت: ٩٤هـ) ابنه محمد الباقر.

قال محمد الباقر: أوصاني أبي قال:

لا تصحبن خمسةً ولا تحادثهم، ولا ترافقهم في طريق.

قلت: جعلتُ فداك يا أبة مَنْ هؤلاء الخمسة؟

فقال:

- لا تصحبن فاسقاً، فإنه يبيعك بأكلة فما دونها.

قلت: يا أبة وما دونها؟

قال: يطمع فيها ثم لا ينالها.

قلت: يا أبة ومن الثاني؟

قال: لا تصحبن البخيل، فإنه يقطع بك في ماله أحوج ما كنت إليه.

قلت: يا أبة ومن الثالث؟

قال: لا تصحبن كذاباً، فإنه بمنزلة السراب، يبعد منك القريب،

ويقرب منك البعيد.

قلت: يا أبة ومن الرابع؟

قال: لا تصحبن أحقق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك.

قلت: يا أبة ومن الخامس؟

قال: لا تصحبن قاطع رحم فإني وجدته ملعوناً في كتاب الله في ثلاثة

مواضع^(١).

وهذا الموضوع في غاية الأهمية، ولعلي أعود إليه في فرصة قادمة

فأبسط فيه الكلام، ومن الله العون.

(١) صفة الصفوة (٢/١٠١).

تضافر جهود الأسرة والأقارب على هذه الرعاية

لم تكن العناية بالأبناء مقصورة على الوالدين فحسب، بل كان الأقارب يشاركون في ذلك مشاركة فعالة ملحوظة، وقد كانت هناك جهود للأخوال والأعمام والخالات والعمات، وأبنائهم، وأشير إلى نماذج من ذلك فأقول:

- قال ابن كثير في ترجمة القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق (ت: ١٠٧هـ أو ١٠٨هـ):

- «كان أحد الفقهاء المشهورين، له روايات كثيرة عن الصحابة وغيرهم، وكان من أفضل أهل المدينة، وأعلم أهل زمانه، قُتل أبوه بمصر وهو صغير، فأخذته خالته، فنشأ عندها، وساد، وله مناقب كثيرة»^(١).

- وقال مصعب الزبيري: سمعت مالك بن أنس قال لابني أخته: أبي بكر وإسماعيل ابني أبي أويس:

أراكما تحبان هذا الشأن وتطلبانه؟ قالوا: نعم، قال: إن أحببتهما أن تنتفعا به، وينفع الله بكما، فأفلا منه، وتفقهها^(٢).

(١) البداية والنهاية (٩/ ٢٥٠).

(٢) رواه الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه (٢/ ١٥٩) تحت عنوان «وليعلم أن الإكثار من كتب الحديث وروايته لا يصير به الرجل فقيهاً، وإنما يتفقه باستنباط معانيه، وإنعام التفكير فيه».

- ومن المشهور خبر الإمام سهل بن عبد الله التستري (ت:

٢٨٣هـ):

قال القشيري: «قال سهل: كنت ابن ثلاث سنين وكنت أقوم بالليل، أنظر إلى صلاة خالي محمد بن سوار، وكان يقوم بالليل، فربما كان يقول: يا سهل اذهب فم فقد شغلت قلبي...، وقال لي خالي يوماً: ألا تذكر الله الذي خلقك؟ فقلت: كيف أذكره؟ فقال: قل بقلبك عند تقلبك في ثيابك، ثلاث مرات، من غير أن تحرك به لسانك: الله معي، الله ناظر إليّ، الله شاهد عليّ. فقلت ذلك ثلاث ليالٍ، ثم أعلمته، فقال لي: قل في كل ليلة سبع مرات. فقلت ذلك ثم أعلمته، فقال: قل في كل ليلة إحدى عشرة مرة. فقلت ذلك فوقع في قلبي له حلاوة.

فلما كان بعد سنة قال لي خالي: احفظ ما علمتك ودّم عليه إلى أن تدخل القبر، فإنه سينفعك في الدنيا والآخرة. فلم أزل على ذلك سنين، فوجدت لها حلاوةً في سرّي.

ثم قال لي خالي يوماً: يا سهل من كان الله معه، وهو ناظر إليه، ومشاهده أيعصيه؟! إياك والمعصية»^(١).

(١) الرسالة القشيرية (ص: ٥٧-٥٨)، ومراة الجنان (٢/ ٢٠٠).

ومن ذلك ما جاء في تراجم هؤلاء العلماء:

- الإمام الحافظ أبو يعلى الموصلي (ت: ٣٠٧هـ):

جاء عنه أنه ارتحل في حديثه إلى الأمصار، باعتناء أبيه، وخاله محمد ابن أحمد بن أبي المثني، ثم بهمته العالية^(١).

- محدث إسفرايين أبو محمد الحسن بن محمد الإسفراييني

(ت: ٣٤٦هـ):

قال الذهبي: «رحل مع خاله الحافظ أبي عوانة فسمع أبا مسلم الكجي وطبقته»^(٢).

- الإمام أبو بكر الجوزقي (ت: ٣٨٨هـ):

قال السبكي: «كان أبو بكر أحد أئمة المسلمين، علماً، وديناً، وكان محدث نيسابور، وابن أخت محدثها أبي إسحاق إبراهيم بن محمد المزكي. روى عن ... أبي العباس الدغولي، رحل إليه مع خاله إلى سرّخس»^(٣).

(١) سير أعلام النبلاء (١٤ / ١٧٤).

(٢) العبر (٢ / ٢٧٧).

(٣) طبقات الشافعية الكبرى (٣ / ١٨٤)، وفي معجم البلدان (٢ / ١٨٤)، «ورحل به خاله أبو إسحاق المزكي»، وقال الذهبي في العبر (٢ / ١٧٥): «اعتنى به خاله أبو إسحاق المزكي».

- أحمد بن محمد أبو المكارم الصيرفي المعروف بابن القديسي

(ت: ٤٢٩ هـ):

قال الخطيب: «أحد أصدقائنا، وممن كان يسمع معنا، وهو ابن أخت أبي القاسم الأزهري، بكَرَّ به خاله في سماع الحديث، من الحسن بن القاسم الدباس... وسمعه أيضاً من أبي الحسن ابن الصلت المجبر، وأبي أحمد الفرضي، وأبي الحسين ابن المتيم، وأبي عمر ابن مهدي، وأبي الحسين ابن المحاملي، ومن بعدهم...»^(١).

- أحمد بن عبد الملك أبو نصر القطان المعروف بابن الحواجبي

(ت: ٤٤٨ هـ):

قال الخطيب: «هو ابن أخت أبي القاسم الأزهري، بكَرَّ به خاله في السماع من أبي حفص الكتاني، وأبي الحسين ابن حمه الخلال، وأبي القاسم ابن الصيدلاني، وابن الصلت المجبر ونحوهم»^(٢).

- المبارك بن علي أبو عبد الله البغدادي (٤٨٩ - ؟)

سبط أبي الحسين أحمد بن عبد القادر بن يوسف:

قال الحافظ ابن عساكر: «سمع ببغداد بإفادة خاله أبي الفرج

(١) تاريخ بغداد (٥/ ٨٩).

(٢) تاريخ بغداد (٤/ ٢٦٧).

عبد الخالق بن أحمد أبا سعد محمد بن عبد الملك بن عبد القاهر
الأسدي، وأبا الحسن علي بن محمد بن محمد بن علي العلاف
المقرئ، وأبا الحسن حمد بن إسماعيل بن حمد الهمداني،
وأبا الغنائم محمد بن علي ابن ميمون النرسي وغيرهم»^(١).

- الشيخ الفاضل المؤدّب مسند هراة تميم بن أبي سعيد الجرجاني
(ت: ٥٣٠هـ أو التي بعدها):

قال الذهبي بعد أن ذكر شيوخه: «انتهى إليه بهراة علو الإسناد،
كان قد اعتنى به خاله الحافظ عبد الله بن يوسف [٤٠٩ - ٤٨٩]، فسمّعه
بنيسابور من المذكورين»^(٢).

- محمد بن عبد الله بن محمد الغرناطي المقرئ المعروف بابن
الغاسل (ت: بعد ٥٧٠هـ):

قال ابن الأبار في ترجمته: «سمع أبا عبد الله النميري، وصحبه طويلاً،
وهو علمه وأفاده، وندبه إلى لقاء الشيوخ، والأخذ عنهم، ورحل به للسمع
منهم، وكان ابن خاله»^(٣).

(١) تاريخ مدينة دمشق (٩/٥٧).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢٠/٢١)، وجاء فيه (٢٠/٢٠) أن مولد تميم بعد الأربعين وخمس
مئة. وهو خطأ لا يصح فخاله الذي اعتنى به ولد سنة (٤٠٩) وتوفي سنة (٤٨٩)، كما
في ترجمته في سير أعلام النبلاء (١٩/١٥٩).

(٣) التكملة لكتاب الصلة (٢/٤٤).

- الإمام أبو الفرج ابن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ):

قال سبطه في ترجمته: «توفي أبوه وله ثلاث سنين، وكانت له عمّة صالحّة، وكان أهلها تجاراً في النحاس.. فلما ترعرع حملته عمته إلى مسجد أبي الفضل ابن ناصر، فاعتنى به وأسمعه الحديث»^(١)، ولازمه أبو الفرج سنين طويلة^(٢).

- الإمام زين الدين ابن نجية الأنصاري الدمشقي نزيل مصر (ت: ٥٩٩هـ):

جاء عنه أنه قال: حفظني خالي مجلس وعظ، وعمري يومئذ عشر سنين، ثم نصب لي كرسيّاً في داره، وأحضر لي جماعته، وقال: تكلم. فتكلمت، فبكى.

وكان ابن نجية يذكر بعض ذلك المجلس وهو ابن تسعين، وكان بطيء النسيان^(٣).

وقد استفاد ابن نجية من خاله إذ كان يلازمه، وكانت أمه وهي صالحّة حافظّة تتابعه.

(١) مرآة الزمان (٨/ ٢/ ٤٨١)، وفي سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣٦٧): «توفي أبوه وله ثلاثة أعوام فربته عمته»، وجاء في المستفاد من ذيل تاريخ بغداد (ص: ١١٦-١١٧): «فلما ترعرع حمّله عمه أبو البركات إلى الحافظ أبي الفضل ابن ناصر»!
(٢) الذيل على طبقات الحنابلة (١/ ٤٠١-٤٠٢ و ٤١٥).
(٣) الذيل على طبقات الحنابلة (١/ ٤٣٦).

يقول زين الدين: كنا نسمع من خالي التفسير، ثم أجيء إلى الوالدة فتقول: إيش فسّر أخي اليوم؟ فأقول: سورة كذا وكذا، فتقول: ذكر قول فلان، وذكر الشيء الفلاني؟ فأقول: لا، فتقول: ترك هذا. وسمعت والدي يقول: كانت تحفظ كتاب «الجواهر» - وهو ثلاثون مجلدة - تأليف والدها الشيخ أبي الفرج الشيرازي الحنبلي، وأقعدت أربعين سنة في محرابها^(١).

- الإمام النحوي الأديب أبو اليمن زيد بن الحسن الكندي (٥٢٠هـ -

٦١٣هـ):

قال القفطي في ترجمة ابن عمه علي بن ثروان بن زيد الكندي (ت: قريباً من سنة ٥٦٥هـ): «كانت له معرفة حسنة بالأدب، ويقول الشعر، وهو الذي أفاد زيد بن الحسن ابن عمه، وأحضره مجالس مشايخ الأدب والرواية، ورغبه في ذلك، وحثه عليه من صغره»^(٢).

- محمد بن أحمد بن صالح بن شافع الجيلي ثم البغدادي المعدل الحنبلي

أبو المعالي (ت: ٦٢٧هـ):

جاء في ترجمته: «توفي والده وله سنة وشهور، فتولاه خاله أبو بكر

(١) السابق (١/ ٤٤٠). وقوله: «أقعدت...»، أي انصرفت إلى العبادة في مرضها أربعين سنة.

(٢) إنباه الرواة (٣/ ٢٣٥).

ابن مشق، وأسمعه الكثير من خلق، منهم السقلاطوني، وابن الرحلة، وشهدة، وقرأ القرآن بالروايات، وتفقه في المذهب.

قال ابن النجار: كان طيب النعمة في قراءة القرآن والحديث، ويفيد الناس إلى آخر عمره، وكان متديناً، صالحاً، حسن الطريقة، جميل السيرة، وقوراً، صدوقاً، أميناً، كتبت عنه، ونعم الرجل...»^(١).

- محمد بن عماد بن محمد أبو عبد الله الحراني الحنبلي التاجر نزيل الإسكندرية (ت: ٦٣٢ هـ):

قال الذهبي: «روى عن ابن رفاعة، وابن البطي، والسلفي، وطائفة كبيرة، باعتناء خاله حماد الحراني»^(٢).

- محمد بن مسعود بن بهروز البغدادي الطيب (ت: ٦٣٥ هـ):

قال الذهبي: «أسمعه خاله من أبي الوقت [السجزي]، وتفرد بالرواية بالسماع عنه»^(٣).

- أبو بكر محمد بن الحسن بن عبد السلام التميمي السفاقي الأصل

الإسكندراني المالكي (ت: ٦٥٤ هـ):

(١) شذرات الذهب (٧/ ٢٢١).

(٢) العبر (٣/ ٢١٤).

(٣) العبر (٣/ ٢٢٤).

قال الذهبي: «أحضره خاله الحافظ ابن المفضل قراءة المسلسل بالأولية عند السلفي، واستجازه له، ثم أسمعه من أحمد بن عبد الرحمن الحضرمي وغيره»^(١).

- عبد العزيز بن يحيى البصري المغربي المدني، سبط الجمال محمد بن أحمد بن خلف المطري (ت: ٧٥٢هـ) عن عشرين سنة:

قال السخاوي: «له ذكر في خاله العفيف عبد الله بن الجمال المشار إليه، وهو المربي له، والملزم له بالعكوف على الواردين عليهم من شيوخ العلم... اشتغل حنبلياً، وبرع في العلوم وأتقنها، وكان يحفظ أصولاً متعددة في فنون كثيرة، وفاق على أقرانه وأبناء جنسه، ثم حفظ المنهاج للشافعية من غير إعراض عن مذهبه الحنبلي، بل ليجمع بين المذهبين، ثم ارتحل إلى دمشق رغبةً في لقاء الشيوخ والأخذ عنهم فتوفي بها»^(٢).

- العالم الصالح الشيخ خليل بن عبد الرحمن القسطلاني المكي المالكي (٦٨٨ - ٧٦٠هـ):

قال السخاوي: «وأشغله خاله النجم الطبري القاضي في المذهب الشافعي، فحفظ الحاوي والتنبيه، ثم تحول مالكيًا...»^(٣).

(١) العبر (٣/ ٢٧٣-٢٧٤).

(٢) التحفة اللطيفة (٢/ ١٩٠).

(٣) التحفة اللطيفة (١/ ٣٢٢).

- الإمام الحافظ شمس الدين أبوبكر محمد بن المحب عبد الله
الصالحى المقدسى الحنبلى المعروف بالصامت (ت: ٧٨٩هـ):

جاء فى ترجمته: «سمع من عيسى المطعم، والقاضى تقي الدين، وابن
عبد الدائم، والقاسم ابن عساكر، وقرأ على خالته زينب بنت الكمال
كثيراً، وعلى أبيه...»^(١).

- الشيخ الفقيه الواعظ علي بن محمد البعلى ثم الدمشقى الحنبلى، ابن
اللحام (٧٥٠ تقريباً - ٨٠٨هـ):

قال ابن حجر: «كان أبوه لحاماً، فمات وهو رضيع، فرباه خاله،
وعلمه صنعة الكتان، ثم حبب إليه العلم فاشتغل وتفقه حتى برع فى
مذهبه، ودرّس وأفتى، وأخذ عن ابن رجب وغيره، وشارك فى الفنون،
وناب فى الحكم، ووعظ بالجامع الأموي...»^(٢).

- علي بن إبراهيم ابن المؤرخ الشمس محمد القرشى الدمشقى
الشافعى، ويعرف كسلفه بابن الجزرى (ت: ٨١٣هـ):

قال ابن حجر: «مات أبوه وله سنة، فرباه عمّه نصير الدين محمد،
وأسمعه عليه [الجزء] التاسع عشر من أمالى الحسن بن رشيق...»^(٣).

(١) شذرات الذهب (٨/ ٥٢٩)، والمقصد الأرشد (٢/ ٤٣٠).

(٢) ذيل الدرر الكامنة (ص: ١٠٧). وحبب تحتل ضبطين: حَبَّبَ وَحُبَّبَ.

(٣) من الضوء اللامع (٥/ ١٥٧).

- العلامة الفقيه الأصولي محمد أمين سويد (١٢٧٣-١٣٥٥هـ):

«ولد في دمشق، لأسرة تعمل في التجارة والفلاحة، وكان أبوه تاجراً، توفي أثناء رحلة إلى الحجاز، وابنه دون العاشرة، فكفله عمّه الذي افتتح متجراً صغيراً لبيع الأقمشة وعهد به إليه، لكنه أهمله وانصرف إلى العلم فشجعه العم»^(١).

- ومن العلماء الذين كان للخال أثر كبير في حياتهم الأستاذ العالم الأديب شكري فيصل الدمشقي.

وخاله هو الأستاذ المربي الشيخ محمود ياسين فقد علمه وأدبه وشجعه وفتح له آفاقاً واسعة في العلم والحياة، ولهذا فإنه حين نشر أول عمل له وهو كتاب «المجتمعات الإسلامية» كتب في أوله العبارة الآتية:

«إلى خالي الذي أراد الله أن يصطفيه إلى جواره قبل أن يملأ عينيه من ثمرة الغرسة التي انتزعها من أرضها ليزرعها في أرض خصبة من العلم... إلى روح خالي محدث الشام الأستاذ الشيخ محمود ياسين، أهدي هذا الكتاب فهو روح من روحه، وعبق من عقبه، وفاء ببعض حقه وإيماناً

(١) تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري (١/٥٠٣).

بفضله»^(١).

وهكذا رأينا في هذا الفصل حرص الأقرباء على الأبناء، وسعيهم في تعليمهم ونفعهم وتوجيههم الوجهة الصحيحة، وعدم تركهم يضيعون في المجاهل والجهالات.

ومما يلفت النظر اهتمام الأخوال - على وجه الخصوص - فقد ذكر الخال في الشواهد السابقة في ثمانية عشر موضعاً، وذكر العم في موضعين، والخالة في موضعين، والعمة في موضع، وكذلك ابن الخال وابن العم ذكر في موضع واحد، وصحيح أن هذه الشواهد ليست نهاية القول، ولكن تكرر ذكر الخال واضح يلفت النظر فعلاً، فما السبب في ذلك؟ هذا ما يحتاج إلى دراسة وتأمل وليس هذا موضع ذلك الآن، ولكني أقول في عجالة: لعل السبب قرب الأم من إخوتها، وسهولة دخولهم على أختهم - حين غياب الزوج بسفر أو موت - أكثر من العم، والله أعلم.

(١) انظر لزاماً ما كتبه الأستاذ محمد مطيع الحافظ عنه في كتابه «في ربوع الشام» (ص ٦٠٠ - ٦٠٢)، وكتابه الذي أفردته عنه وهو بعنوان: «شكري فيصل العالم الأديب المجمع» (ص: ١١-١٤).

الكتابة والتأليف لهم

اهتمت الأسرة المسلمة بالجانب العلمي في تنشئة الأبناء اهتماماً ملحوظاً، وكانت إلى جانب تدريسهم وتعليمهم تكتب لهم المؤلفات النافعة التي تصحبهم في حياتهم، وتنفعهم وتنفع غيرهم، ومن هؤلاء:

- الطبيب الخطيب أبو الحسن عبد الله بن عيسى بن بختويه - من أهل واسط - (كان حياً سنة ٤٦٤ هـ):

ألف كتاب «المقدمات» ويعرف أيضاً بـ «كنز الأطباء» لولده في سنة عشرين وأربع مئة^(١).

- الإمام الشيخ الفقيه الحافظ أبو الوليد الباجي الأندلسي (٤٠٣ هـ - ٤٧٤ هـ):

كتب وصية لابنيه أبي القاسم أحمد (ت: ٤٩٣ هـ)، وأبي الحسن محمد (توفي في حياة أبيه سنة ٤٧٢ هـ):

قال في أول هذه الوصية: «يا ابني - هداك الله وأرشدكما ووفقكما وعصمكما، وتفضل عليكما بخير الدنيا والآخرة، ووقاكما محذورهما برحمته - إنكما لما بلغتما الحد الذي قرب فيه تعين الفروض عليكما،

(١) عيون الأنباء (ص: ٣٤٠)، والوافي بالوفيات (١٧/٣٩٧)، والترجمة فيه من عيون الأنباء بنصها.

وتوجه التكليف إليكما، وتحققت أنكما قد بلغتما حدَّ مَنْ يفهم الوعظ،
ويتبين الرشد، ويصلح للتعليم والعلم، لزمني أن أقدم إليكما وصيتي،
وأظهر لكما نصيحتي، مخافة أن تخترمني منية، ولم أبلغ مباشرة تعليمكما
وتدريبيكما، وإرشادكما وتفهيمنكما»^(١).

- الإمام أبو سعد عبد الكريم ابن السمعي (ت: ٥٦٢هـ):

ألفَ لابنه عبد الرحيم كتابين: قال ابن خلكان: «كان لأبي سعد عبد
الكريم ولد يقال له أبو المظفر عبد الرحيم بكر به والده في سماع الحديث،
وطاف به في بلاد خراسان وما وراء النهر، وأسمعه الحديث، وحصل له
النسخ^(٢)، وجمع له «معجماً» لمشايخه، في ثمانية عشر جزءاً، و«عوالي» في
مجلدين ضخمين...»^(٣).

- الأمير الأديب الشاعر الكبير أسامة بن منقذ (ت: ٥٨٤هـ):

ألفَ كتاب الشيب والشباب لابنه^(٤).

- الإمام الكبير واعظ الإسلام أبو الفرج ابن الجوزي البغدادي (ت)

: ٥٩٧هـ):

(١) وصية الباجي لولديه (ص: ٣٥).

(٢) أي نسخاً من الكتب التي قرأها على الشيوخ..

(٣) وفيات الأعيان (٣/ ٢١٢) وقد مر ذكر هذا

(٤) الوافي بالوفيات (٨/ ٣٨٢)، وجاء في معجم الأدباء (٦/ ٥٧٩): ألفه لأبيه، وذكره
الأمير لنفسه في كتابه لباب الآداب (ص: ١٠٥ على موقع الوراق) ولم يذكر شيئاً من
ذلك.

ألف لابنه أبي القاسم علي: «لفتة الكبد في نصيحة الولد»، قال في مقدمتها: «إني لما عرفت شرف النكاح وفضل الأولاد، ختمت ختمة فسألت الله عز وجل أن يرزقني عشرة أولاد، فرزقني إياهم، فكانوا خمسة ذكوراً، وخمسة إناثاً، فمات من الإناث اثنتان، ومن الذكور أربعة، ولم يبق لي من الذكور سوى ولدي أبي القاسم، فسألت الله تعالى أن يجعل فيه الخلف الصالح، وأن يبلغني فيه المنى والمناجح، ثم رأيت منه نوع توان عن الجد في طلب العلم، فكتبت إليه هذه الرسالة أحثه بها على طلب العلم، وأحركه على سلوك طريقي في كسب العلم، وأدله على اللجأ^(١) إلى الموفق سبحانه، مع علمي بأنه لا خاذل لمن وفق، ولا مرشد لمن أضل، لكن قد قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر: ٣)، وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ (الأعلى: ٩) ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم^(٢).

وكتب «المجالس اليوسفية في الوعظ» لابنه يوسف الذي ولد بعد ذلك^(٣).

- الإمام أبو الحجاج يوسف بن محمد البلوي (٥٢٩-٦٠٤هـ):

ألف كتابه «ألف با» لابنه عبد الرحيم، وقال في مقدمته: «فإني عزمت ... على أن أجمع في هذه الأوراق، كل معنى رقّ أوراق، مما هو عندي

(١) أي أن يلجأ إلى الموفق وهو الله سبحانه.

(٢) لفتة الكبد (ص: ١٧-١٨).

(٣) الذيل على طبقات الحنابلة (٣/ ٤٢٠). وهذا الكتاب ما زال مخطوطاً.

مستحسن لا مستخشن، ومستلمح لا مستبجح، وأثبت فيه من الفوائد ما يزرى بالفرائد، ومن بدائع العلوم والفهوم ما يرتقي به من التخوم إلى النجوم، وجعلت ما أولف فيه وأبني، لعبد الرحيم ابني، ليقرأه بعد موتي، وينظر إليّ منه بعد فوتي، إذ لم يلحق بعد لصغره درجة النبلاء، ولم يبلغ مرتبة العقلاء، أرجو أن يجعله الله منهم، ولا يقطع به عنهم، فيكون - إن شاء الله تعالى - بقراءة هذا الكتاب في الزيادة، إلى أن يلحق بالسادة.

إن الهلال إذا رأيت نموه أيقنت أن سيصير بديراً كاملاً^(١)

وسميت ما جمعت لهذا الطفل المربا «كتاب ألف با» وقلت فيه:

هذا كتابُ ألفِ با	صنعتُهُ يا ألباً
مِنْ أَجْلِ نَجْلِ المَرَجِيِّ	إِذَا شَدَا أَنْ يَلْبَا
أَدْعُو لِعَلْمٍ وَمِنْ حَا	قَّ مَنْ دَعَا أَنْ يُلْبَى
وَأَنْتَ عَبْدُ الرَّحِيمِ الـ	طِفْلُ الصَّغِيرِ المُرَبِّا
إِذَا عَقَلْتَ فَقُلْ قَدْ	رَضَيْتُ بِاللَّهِ رَبَا
وَدِينِ الإِسْلَامِ دِينَا	وَبِالنَّبِيِّ المُنْبَا

(١) البيت لأبي تمام من قصيدته:

ما زالت الأيام تخبر سائلاً أن سوف تفجع مسهلاً أو عاقلاً

وقوله «سيصير» هي في الديوان: سيكون. وهي أجمل. انظر: الديوان (ص: ٥٢٨) ضمن المكتبة الشاملة.

محمدٌ قل رسولاً وقل نبياً محبباً
 ثم استقيم واتبعه تزدد من الله قرباً
 وذا الكتاب اتخذه لداء جهلك طباً
 فإنه صنع مرءٍ طب لمن حبب طباً
 هذي وصاة أب لم يزل لشخصك صبا
 ولو يطيق عليك الـ خيرات أجمع صبا^(١)

وذكر له الزركلي كتاباً آخر «توسع فيه بما أوجز في ألف باء» من أخبار
 وأشعار، سماه «تكميل الأبيات وتتميم الحكايات مما اختصر للألباء في
 كتاب ألف باء»^(٢).

- الإمام فخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦هـ):

جاء في ترجمة أحد أحفاده وهو علاء الدين علي بن محمود الشهير بـ:
 مصنفك (٨٠٣-٨٧٥هـ) أنه قال:

«كان للإمام الرازي ولد اسمه محمد، وكان الإمام يحبه كثيراً، وأكثر
 مصنفاته صنفه لأجله، وقد ذكر اسمه في بعضها، ومات محمد في عنفوان
 شبابه»^(٣).

(١) ألف با (٣/١).

(٢) الأعلام (٩/٢٤٨).

(٣) شذرات الذهب (٩/٤٧٦).

وذكر الحاج خليفة كتابه «الأربعين في أصول الدين»، وقال: «ألفه لولده محمد، ورتبه على أربعين مسألة من مسائل الكلام»^(١).

- الإمام ناصر بن عبد السيد المطرزي النحوي (ت: ٦١٠):

له كتب منها:

- الإقناع لما حوى تحت القناع: قال الحاج خليفة: «وهو لغة، مرتب على الأجناس، ذكر الهوام وما يتعلق بها في فصل، وبني على أربع قواعد، أوله: الحمد لله الذي جعل العربية مفتاح التنزيل» ذكر فيه أن ولده لما فرغ من حفظ القرآن ألفه ليحفظه، وأعلم فيه للجوهري والتهذيب^(٢)، وقد وصل إلينا، وهو شبه قاموس للمترادفات^(٣)، وطبع قريباً^(٤).

- المصباح في النحو: قال في مقدمته: «إنَّ الولد الأعز - لا زال كاسمه مسعوداً، وإلى أهل الخير مودوداً - لما استظهر مختصر الإقناع، وكشف عنه بحفظه فضلة القناع، وأحاط بمفرداته حفظاً، وأتقن ما فيه من النحو معنى ولفظاً، أردت أن أُلِّمه^(٥) من كلام الإمام المحقق، والخبير

(١) كشف الظنون (١/ ٦١).

(٢) كشف الظنون (١/ ١٣٩-١٤٠).

(٣) التقديم لـ «المصباح» (ص: ٢٠-٢١).

(٤) انظر مقدمته (ص: ٣-٦).

(٥) التلمظ: إدارة اللسان في الفم وتحريكه لتتبع أثر المطعوم، والمقصود هنا: أن يذيقه طعم كلام الجرجاني ليتتبعه.

المدقق، أبي بكر عبد القاهر الجرجاني - سقى الله ثراه، وجعل الجنة مثواه - حتى يعلق بطبعه من لفظه الحلو، ما يتفجر منه ينباع النحو، فنظرت في مختصراته المضبوطة، دون كتبه المبسوطة، فوجدت أكثرها تعاوراً بين الأئمة: المئة، والجمل، والتممة، فاستطلت أن أكلفه جمعها، وأحملة رفعها، كراهة ما فيها من الأشياء المعادة، وإن كانت لا تخلو من الإفادة، فاستصفيت منها هذا المختصر، ونفيت عن كل منها ما تكرر، استثقلاً للمعاد، واستقلالاً للمفاد، غير مدخِر فضل النصيحة، في رعاية عباراته الفصيحة، ولم أطو ذكر شيء من مسائلها إلا ما ندر، أو شاع فيما بينهم واشتهر، ولم أزد فيه شيئاً أجنبياً، إلا ما كان بالزيادة حرياً، وترجمته بكتاب «المصباح» ليستضيء بأنواره، ويستفيء بمغانم آثاره، وكسرتة على خمسة أبواب...»^(١).

قال الحاج خليفة: «وهو كتاب متداول بين الطلبة، نافع مبارك»^(٢).

- الإمام موفق الدين عبد اللطيف البغدادي (ت: ٦٢٩هـ):

من مؤلفاته: «كتاب تاريخ وهو يتضمن سيرته، ألفه لولده شرف

الدين يوسف»^(٣).

(١) المصباح (ص: ٤٧-٤٨).

(٢) كشف الظنون (٢/١٧٠٨) وهو مطبوع، وله شروح كثيرة انظرها في الكشف، وفي تقديم المحقق (ص: ٢٦).

(٣) عيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص: ٦٩٤).

- العلامة نجم الدين عبد الغفار بن عبد الكريم القزويني الشافعي (ت: ٦٦٥هـ):

ألف كتابه «الحاوي الصغير» لولده جلال الدين محمد^(١).

- الإمام ابن مالك (ت: ٦٧٢هـ):

نظم «الألفية» لابنه تقي الدين محمد المعروف بالأسد، وكذلك كتب «المقدمة الأسدية» وهي صغيرة، نثر غير نظم، وضعها باسمه^(٢).

- الإمام محمود المحبوبي (ت: في حدود ٦٧٣هـ)^(٣):

ألف كتابه «وقاية الرواية في مسائل الهداية» لحفيده صدر الشريعة عبيد الله بن مسعود المحبوبي (ت: ٧٤٧هـ) ليحفظه في أول نشأته، وقد استخلصه من مسائل كتاب «الهداية» للإمام برهان الدين المرغيناني. وأصبح أحد المتون الأربعة المعتبرة عند الحنفية.

وقد اختصر عبيد الله هذا الكتاب، وسمى مختصره «النقاية»، وهو الذي شرحه الشيخ علي القاري (ت: ١٠١٤هـ) بكتابه المسمى «فتح باب العناية»^(٤).

(١) تاريخ الإسلام (١٩٧/٤٩-١٩٨).

(٢) الوافي بالوفيات (٢٠٦/١).

(٣) هذا التاريخ من هدية العارفين (٤٠٦/٢).

(٤) مقدمة «فتح باب العناية» بقلم محققه الأستاذ الشيخ عبد الفتاح أبو غدة (ص: ٤).

- الإمام أبو عبد الله محمد بن محمد الصنهاجي المعروف بابن

آجرُوم^(١) (ت: ٧٢٣هـ):

ألف كتابه «المقدمة المشهورة بالآجرومية»، لولده أبي محمد:

قال السخاوي في ترجمة محمد بن أحمد بن يعلى السيد الحسني: «شرح

الجرومية^(٢)، وقال: إن مؤلفها صنّفها لولده، وأنه قرأها على الولد المشار

إليه بفاس. وأظنه من أهل هذا القرن فليحرر»^(٣).

وقال الكتاني في ترجمة ابن آجروم: «ومن أخذ عنه أيضاً ولداه:

الأستاذ الأثير، العالم الكبير، أبو محمد عبد الله، وبرسمه وضع والده

المذكور المقدمة المذكورة، فنفعه الله بها، وانتفع بها أيضاً كل من قرأها،

وهي من أجل ما ألف في علم النحو، قربة المرام، سهلة للحفظ والتفهم،

كثيرة النفع لمن هو مبتدئ. قال سيدي الشريف في شرحه لها: ولما حضرتها

على ولده أبي محمد المذكور بمدينة فاس، وجدت لها بركة عظيمة...»^(٤).

ويفيد هذا النص أن الذي ألف^س باسمه انتفع بها ونفع، وقرأها

وأقرأها، وقد سارت هذه المقدمة في العالم الإسلامي، وانتفع بها من لا

يخصي من الطلاب.

(١) آجروم بلغة البربر ومعناها: الصوفي الفقير.

(٢) هكذا سماها السخاوي.

(٣) الضوء اللامع (٧/١١٨).

(٤) سلوة الأنفاس (٢/١٢٧).

- الإمام شهاب الدين عبد الرحمن بن محمد بن عسكر المالكي

البغدادى (ت: ٧٣٢هـ):

ألف كتابه «إرشاد السالك إلى أشرف المسالك في فقه الإمام مالك» لابنه:
قال في مقدمته: «فإن الولد السعيد - وفقه الله تعالى - لما راهق سن الرشاد،
وناهز أن ينتظم في سلك أهل السداد، سألتني أن أضع له كتاباً يكون مع
كثرة معانيه وجيز اللفظ، سهل التناول والحفظ، فاستخرت الله تعالى،
وجمعت له هذا المختصر، وأودعته جزيلاً من الجواهر والدرر»^(١).
وقد أصبح ابنه وهو محمد عالماً كبيراً، وله تأليف منها شرح «الإرشاد»
هذا، وقد ولد سنة (٧٠١) وتوفي سنة (٧٧٦هـ)^(٢).

- الإمام أبو القاسم محمد بن أحمد بن جزى الكلبى الغرناطى

المالكي (ت: ٧٤١هـ):

ألف كتابه «الأنوار السنّية في الألفاظ السنّية» لولده أحمد (٧١٥

- ٧٨٥هـ):

(١) إرشاد السالك مع شرحه أسهل المدارك (١/ ٢٤-٢٨)، وقد سماه الحاج خليفة في
كشف الظنون (١/ ٦٤): «إرشاد السالك إلى أفضل المسالك» ولم يذكر مؤلفه، وقال:
«في فروع الحنابلة». وهو خطأ. وقال ابن فرحون عن هذا الكتاب: «أبدع فيه كل
الإبداع، جعله مختصراً وحشاه بمسائل وفروع لم تحوها المطولات، مع إيجاز بليغ».
الديباج المذهب (١/ ٤٨٤).
(٢) الديباج المذهب (٢/ ٣٢٧).

قال في مقدمته: «ولمَّا يَسَّرَ اللهُ على ابني أحمد المكنى أبا بكر - أبلغ الله فيه الأمل، وجعله من أهل العلم والعمل - حفظ القرآن العظيم، أحببت أن يفوز بحظ من حفظ حديث المصطفى عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، فجمعت له في هذا الكتاب جملة صالحة من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، جريت في هذا على منهاج كتاب «الشهاب» للقاضي أبي عبد الله القضاعي...»^(١).

وألف كتابه «تقريب الوصول إلى علم الأصول» لابنه محمد (٧٢١ هـ - ٧٥٧ هـ)، قال في مقدمته: «وإني أحببت أن يضرب ابني محمد - أسعده الله - في هذا العلم بسهمه، فصنفت هذا الكتاب برسمه، ووسمته بوسمه، لينبسط لدرسه وفهمه، وعولت فيه على الاختصار والتقريب، مع حسن الترتيب والتهذيب»^(٢).

وقد أصبح الابنان من العلماء، ومحمد هذا هو الذي دوّن رحلة ابن بطوطة^(٣).

- الشيخ جبريل بن حسن بن عثمان الكنجاني (ت: ٧٥٢ هـ):

-
- (١) الكتاب مخطوط في مكتبة البلدية بالإسكندرية، انظر مقدمة الدكتور محمد المختار بن الشيخ محمد الأمين الشنقيطي على «تقريب الوصول» (ص: ٤٢)، وقد طبع.
(٢) تقريب الوصول (ص: ٨٨).
(٣) انظر مقدمة الشنقيطي على التقريب (ص: ٢٧-٢٩).

ألف «التقدمة في شرح المقدمة» لولده عبد الله، وهو شرح مفيد بالقول، ذكر في آخره ذيلًا في شرح حروف أبجد ومشتقاتها^(١).

- العلامة الأديب الوزير الكبير لسان الدين ابن الخطيب
(ت: ٧٧٦هـ):

ألف كتابه «السحر والشعر» لابنه عبد الله، وهو عبارة عن مجموعة شعرية اختارها، وذكر في مقدمته أنه لمناسبة ترعرع ولده عبد الله قد اغتتم الفرصة، واختار له طائفة من القصائد تتعلق بالوصايا والمبادئ.

ومن اختار من شعرهم من المشاركة: ابن نباتة، والصابي، ومهيار، وأبو العتاهية، وابن الرومي، والشريف الرضي، وغيرهم.

ومن المغاربة شعراء المغرب والأندلس: ابن رشيق، والمعتمد بن عبّاد، وابن عمار، وابن اللبانة، وابن عبدون، وابن سهل، وابن حمّديس، وابن صمّاح، وابن الجياب، وغيرهم. والمختارات موجزة مقلّة، وقد راعى ابن الخطيب في قسمه الأول نمط الشعر، وفي قسمه الثاني نمط السحر^(٢).

(١) كشف الظنون (٢/ ١٧٩٥)، والمقدمة لأبي الليث السمرقندي ألفها في الصلاة.
(٢) انظر مقدمة المحقق لـ «الإحاطة في أخبار غرناطة» (١/ ٦٥)، وقد وصل من الكتاب أربع نسخ، وطبع مؤخرًا.

- الإمام سراج الدين ابن الملحق (ت: ٨٠٤هـ):

له كتاب بعنوان «تذكرة الأختيار بما في الوسيط من الأخبار» ألفه لابنه^(١).

ونقرأ كذلك في مقدمة كتاب «التذكرة» في الفقه الشافعي: «هذه تذكرة» ذات إحكام وإتقان، على مذهب الإمام المطليبي ابن عم أشرف ولد عدنان، وسهلتها للولد والخلان، ليتنفع بها في أقرب أوان، وعلى الله في كل الأمور الاعتماد والتكلان»^(٢).

- الحافظ عبد الرحيم بن الحسين العراقي (٧٢٥-٨٠٦هـ):

ألف كتابه «تقريب الأسانيد وترتيب المسانيد» لابنه أحمد أبي زرعة (٧٦٢-٨٢٦هـ):

قال في أوله: «فقد أردت أن أجمع لابني أبي زرعة مختصراً في أحاديث الأحكام، يكون متصل الأسانيد بالأئمة الأعلام، فإنه يقبح بطالب الحديث، بل بطالب العلم أن لا يحفظ بإسناده عدة من الأخبار، يستغني بها عن حمل الأسفار في الأسفار، وعن مراجعة الأصول عند المذاكرة والاستحضار...»^(٣) وقد بدأ بشرحه فيما بعد، فشرح مواضع منه ولم

(١) مقدمة طبقات الأولياء (ص: ٥٣).

(٢) التذكرة (ص: ٣١)، وانظر كشف الظنون (١/٣٩٢).

(٣) طرح الشريب (١/١٦-١٧).

يكمله، وأكملة ابنه أبو زرعة.

جاء في مقدمة الشرح: «لما أكملت كتابي المسمى بتقريب الأسانيد وترتيب المسانيد، وحفظه ابني أبو زرعة المؤلف له، وطلبَ حملة عني جماعة من الطلبة الحملة، سألتني جماعة من أصحابنا في كتابة شرح له»^(١).

- الشيخ الرحال الصالح عبد اللطيف بن عبد الرحمن السعدي العبادي الخزرجي الأنصاري المقدسي المعروف بابن غانم وربما نسب نفسه الغانمي (٧٨٦هـ - ٨٤٠هـ ظناً):

عمل لولده منظومة في العربية سماها بالعقد، وشرحها في كراريس سماه «الدر اليتيم في حل العقد النظيم» فرغ منه في بيت المقدس في رمضان سنة ٨٣٧، ومنه:

إنما النحو كملح في الطعام إذ به كل تساوى في القوام
من درى النحو تراه قارئاً يعرف اللفظ على أصل الكلام
يتقيه كل من جالسه من فقيه حاذق حبر همام
هاب أن ينطق من لم يدره خوف لحن ولخزي في الملام
يرفع النصب كجزم دائماً ينصب الرفع إذا جا في السلام
يقراً القرآن لا يُعرب ما صرف النحو بإعراب المقام

(١) طرح الشريب (١/١٤)، وانظر تفصيل ما شرحه الأب وما شرحه الابن في المقدمة (١/٦-٩).

والذي يعرفه يرجع ما شكَّ في لفظٍ رواه بالسقام
يعرف اللفظ فيبري سقمه يعرف اللحن بتغيير النظام
ماههما فيه سواءً عندنا ليس أعمى كبصير في القيام
كم وضيع رَفَعَ النحوُ وكم وَضَعَ اللحنُ رؤوساً في العوام
عبد اللطيف الغانمي ناظمها شَهِدَ الأمرُ عياناً والسلام^(١)

- المحدث رضوان بن محمد العقبي ثم القاهري (٧٦٩ - ٨٥٢هـ):

خَرَجَ «الأربعين المتباينات» لولده^(٢).

- الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ):

كانت له عناية فائقة بأولاده وقد رزق خمس بنات، وذكراً واحداً هو
بدر الدين محمد (٨١٥ - ٨٦٩هـ)، وله ألف كتابه المشهور «بلوغ المرام من
أدلة الأحكام» ليحفظه، وقد فرغ منه سنة ٨٢٨هـ، ولولده نحو ثلاث
عشرة سنة^(٣).

- وجاء في ترجمة الإمام الحافظ عمر بن محمد ابن فهد القرشي الهاشمي

المكي (٨١٢ - ٨٨٥هـ):

(١) الضوء اللامع (٤/ ٣٢٧-٣٢٨). وهذا النظم ليس بقوي كما هو واضح.

(٢) الضوء اللامع (٣/ ٢٢٨)، وانظر (٤/ ٤٦).

(٣) انظر: الجواهر والدرر (٣/ ١٢١٩-١٢٢٠).

أنه «نشأ بمكة، فحفظ القرآن، ثم كتاباً في الحديث ألفه له والده»^(١).

- الشيخ محمد بن محمد المحلي الأصل القاهري الحنفي (٨٣٣-٨٣٣-

٨٩٦هـ):

شرح «غاية تهذيب الكلام في تحرير المنطق والكلام للتفتازاني»

لولده^(٢).

- العلامة نور الدين عبد الرحمن بن أحمد الجامي (٨١٧-٨٩٨هـ):

ألف كتابه «الفوائد الضيائية شرح كافية ابن الحاجب» لولده ضياء

الدين يوسف: يقول في مقدمته: «هذه فوائد وافية، بحل مشكلات الكافية،

للعلامة المشتهر في المشارق والمغرب، الشيخ ابن الحاجب، تغمده الله

تعالى بغفرانه، وأسكنه بحبوحه جنانه، نظمتها في سلك التقرير، وسمط

التحرير، للولد العزيز ضياء الدين يوسف، حفظه الله سبحانه وتعالى عن

موجبات التلهف والتأسف، وسمتها بـ «الفوائد الضيائية» لأنه لهذا الجمع

والتأليف كالعلة الغائية، نفعه الله تعالى بها وسائر المبتدئين من أصحاب

التحصيل، وما توفيقى إلا بالله، وهو حسبي ونعم الوكيل»^(٣).

(١) الضوء اللامع (٦/١٢٦).

(٢) الضوء اللامع (٩/١١٣).

(٣) الفوائد الضيائية (١/١٦٣) والعلة الغائية هي ما كان وجود المعلول لأجلها كما قال

محقق الكتاب نقلاً عن التعريفات (ص: ٨٢).

وضياء الدين يوسف هو الابن الثالث للمؤلف من أربعة، توفي ثلاثتهم سواه. وقد ولد سنة (٨٨٢هـ)^(١).

- وألف الجامي أيضاً كتابه:

«بهارستان» - بالفارسية - لولده الضياء يوسف، سنة (٨٤٠هـ)، رتبته على ثمانين روضات، وأورد في كل منها لطائف حكمية، ونوادير كثيرة، من الأبيات والأشعار، وأهداه إلى السلطان حسين بن بيقر^(٢).

وجاء عنه في مقدمة تحقيق «الفوائد الضيائية»^(٣): «ألف الجامي هذا الكتاب لأجل ابنه ضياء الدين يوسف، وكان في العاشرة من عمره في ذلك الوقت، ويشتمل على حكايات أولياء الله، وعطاء الصوفية، وكلام الحكماء، وعدالة السلاطين، وكلام في الجود والكرم، وذكر أحوال الشعراء، والحكايات والأمثال المنقولة عن الحيوانات.

وقد ألفه بالفارسية بأسلوب سهل يمتزج فيه النثر بالشعر». ويسمى «الإرشادية» أو «إرشادية بهارستان».

- الشيخ عبد الرحيم بن الشيخ أحمد الشهير بسور بهاري:

(١) مقدمة تحقيق «الفوائد الضيائية» (١/١٥٠).

(٢) كشف الظنون (١/٢٥٦).

(٣) (١/٧٥).

ألّف كتابه «كشف اللغات والاصطلاحات» لولده الشيخ شهاب لما قرأ «ديوان قاسم أنوار» في حدود سنة ١٠٦٠هـ، جمع فيه من كتب اللغة الفارسية^(١).

- الشيخ عمر بن صالح الفيضي التوقادي (من علماء القرن الثالث عشر الهجري):

ألّف «الدر الناجي على متن إيساغوجي» لولده عثمان حين قرأ عليه إيساغوجي سنة ١٢١٦هـ^(٢).

- العلامة الأديب مؤرخ حلب الشيخ كامل الغزي (ت: ١٣٥١هـ):

ولد له ولدٌ وهو كبير السن فأراد أن يترك له أثراً ينفعه من بعده، فنظم قصيدة تأديبية ثم شرحها، ونشر جزءاً من عمله هذا في مجلة المجمع العلمي العربي، وقدم له هذه المقدمة: «وُلد لي وأنا على رأس الثامنة والستين من عمري غلامٌ سررتُ به لأنه إحدى الزيتتين، والصلة الوحيدة بين السلسلتين، وحزنت من أجله إشفافاً عليه «ولد الشيب»، لا يدري في أي الأحضان يربّي، ولا يعلم كيف يقطع عقاب الحداثة حتى

(١) كشف الظنون (٢/١٤٩٤).

(٢) معجم المطبوعات العربية والمعربة (٢/٤٧٢).

يبلغ مستوى الاستقلال في شؤونه، فأحبت أن أترك له تراثاً أدبياً تصونه صدور الصحف حتى يترعرع فتمثله له مرشداً سوياً، وناصحاً أميناً، يقوم لديه مقامي بالتربية والإرشاد، إذ لا مطمع لي بأن أبقى حياً إلى أمدٍ يعي فيه ما أشفهه به من عبارات التأديب والتهذيب، كما أشرت إلى ذلك في صدر القصيدة الآتية الذكر مخاطباً إياه بقولي:

أُبْنِي أَنْتَ وَدِيعةُ اللهِ الَّذِي هُوَ بِالْوَدائعِ خَيْرُ مَنْ يَتَكفَلُ
أَبْصَرْتُ نَجْمَكَ فِي الدِيَارِ وَإِنِّي لِإِخَالِ شَمْسِي عَنْ قَرِيبٍ تَأْفَلُ
فإِلَى الإِلهِ وَكَلْتُ أَمْرَكَ إِنَّهُ نَعَمَ الْوَكِيلُ لَنَا وَنَعَمَ الْمُوئَلُ

إن هذا التراث الأدبي هو بلا ريب خير من تراث مالي، قد تذهب به يد الإملاق، وتغار عليه عاديات الأيام والليالي، وهو - أي التراث الأدبي - قصيدة لامية نظمتها في تاريخ مولده تعد نحواً من مئة وثلاثين بيتاً، ضممتها قسماً عظيماً من مسائل الحكمة المدنية، وعلقت عليها شرحاً موجزاً يستوعب نحو مئتي صفحة، سميته «القول الصريح في الأدب الصحيح» بسطت فيه ما انطوت عليه القصيدة من المطالب والمقاصد، مضيفاً إليها بعض زيادات سنحت لي أثناء تحريرها الذي جاد به اليراع صفواً عفواً، دون إجهادٍ قريحةٍ ولا تكليف طبع، مرصعاً إياها بفرائد فوائد اقتضبتُها من فصول كتاب «الأدب الكبير» المنسوب إلى عبد الله

ابن المقفع استزادة للمقاصد الأدبية مما لم آت به في قصيدي، تحاشياً من استكداد الطبع واقتساره في نظمه، وتكريراً لإفادة المستفيد، مما نظمته تثبيتاً له في حافظته، واستجلاباً لطرب القارئ ولذته، بذلك الإنشاء البديع، وابتغاء تعويده السلوك على أسلوبه البليغ، الذي انفرد به صاحبه بين أقرانه قادة الأدب، وجهابذة مَنْ ترسَّل وكتب، غير مدَّخر في ذاكرتي بيتاً من اللزوميات يصلح للتمثل إلا وتمثلت به في الموضوع الذي يتطلبه، والمورد الذي يستعذبه الوارد فيشر به...»^(١).

- وهناك مَنْ أَلَّف كتاباً لأخيه ولكن بعد أن شَبَّ:

قال ابن فرحون في ترجمة الإمام محمد ابن أبي زمنين الغرناطي (ت: ٣٩٩هـ): «ولمحمد أخ اسمه أبو بكر، كان فقيهاً فاضلاً، ولي قضاء البيرة، ولأجله أَلَّف أخوه كتاب الأحكام المسمى بالمنتخب». وقال عن هذا الكتاب: «ظهرت بركته، وطار شرقاً وغرباً ذكره»^(٢).

وهناك كتب أخرى أَلَّفها الآباء للأبناء، وليس من غرضي إحصاؤها هنا، وفيما قدمته كفاية ومقنع.

(١) القول الصريح في الأدب الصحيح، في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، المجلد الخامس (١٩٢٥-١٩٢٦م)، (ص: ٥٤٧-٥٥٧).

(٢) الديباج المذهب (٢/٢٣٣).

وقد رأينا أن الآباء بذلوا جهوداً كبيرة في إيصال العلم إلى أبنائهم،
وإكسابهم المهارات التي منحهم الله إياها، وقد تنوعت هذه المؤلفات
بحسب اهتمامات مؤلفيها واختصاصاتهم، ما بين طب إلى حديث، وفقه،
وعقيدة، ولغة، ونحو، وأدب، وشعر، وسلوك، وتاريخ.

إنَّ هذا التصرف من الآباء - ولا سيما حين يحسون بقرب الرحيل واحتمال
عدم التمكن من إفادة أبنائهم - تصرف يزخر بالدلالات على دينهم
وشعورهم بالمسؤولية تجاههم.

عدم إدخال الغم عليهم

مما يلفت النظر في تاريخ الأسرة المسلمة أَنَّ رَبَّ الأسرة قد يُصاب بشيءٍ من الأمراض والأعراض التي قدرها الله على العباد في هذه الدنيا، ولكنه يتكتم على ذلك، ويصبر ويتجمل، ولا يحمل همه وغمه على عياله، ولا يذكر ما نزل به إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك، وهذا خلق عال، وسلوك شفاف، وقد نرى مَنْ نزل به مرض فأوسع عياله شكوى، وملاً بيته غماً، ونسأل الله العافية من كل ذلك.

وأذكر هنا بعض ما وقفت عليه في هذا الجانب عن عدد من الآباء، لتعلم منهم كيف نراعي شعور أسرنا، ولا ندخل عليهم الغم بذكر المرض وغيره ما استطعنا، وهؤلاء هم:

١- التابعي الجليل الحلیم العاقل أبو بحر الأحنف بن قيس البصري (ت: ٧٢هـ):

عن مغيرة قال: اشتكى ابن أخي الأحنف إلى الأحنف بن قيس وجع ضرسه، فقال له الأحنف: لقد ذهبت عيني منذ أربعين سنة، ما ذكرتها لأحد^(١).

(١) صفة الصفوة (٣/ ٢٠٠).

فالأحنف يريد من ابن أخيه التحمل والتحمل بالافتداء به، ولو لا هذا فلعله لم يذكر ذلك لأحد.

٢- العالم الجليل عبد العزيز بن أبي رواد المكي (ت: ١٥٩هـ):

عن شقيق البلخي قال: ذهب بصر عبد العزيز بن أبي رواد عشرين سنة لم يعلم به أهله ولا ولده. فتأمله ابنه ذات يوم فقال له: يا أبت ذهبت عينك؟ قال: نعم يا بني، الرضا عن الله تعالى أذهب عين أبيك منذ عشرين سنة^(١).

٣- الإمام أبو بكر بن عياش الكوفي (ت: ١٩٣هـ):

قال علي بن محمد: «مكث أبو بكر بن عياش عشرين سنة قد نزل الماء في إحدى عينيه ما يعلم به أهله»^(٢).

٤- قال الإمام إبراهيم الحربي البغدادي (ت: ٢٨٥هـ):

«ما شكوت إلى أمي ولا إلى أختي، ولا إلى امرأتي، ولا إلى بناتي قط حمى وجدتها.

الرجل [هو] الذي يدخل غمه على نفسه، ولا يغم عياله.

وكان برأسى شقيقة خمساً وأربعين سنة ما أخبرت بها أحداً قط، ولي

(١) صفة الصفوة (٢/٢٢٨)، وينظر في معنى جوابه.

(٢) صفة الصفوة (٣/١٦٤).

عشر سنين أبصر بفرد عين ما أخبرت به أحداً»^(١).

وإبراهيم الحربي كان من العلماء العقلاء الزهاد الكبار، وترجمة حياته جامعة نافعة مؤدبة فلنعد إليها، ونتعلم منها الأخلاق والآداب، ومنها هذا الأدب الجميل في عدم إدخال الغم على عيالنا قدر الإمكان^(٢).

(١) صفة الصفوة (٢/٤٠٥).

(٢) ولا يفهم من كلامي الدعوة إلى ترك التداوي والاستشفاء بالأسباب المادية والمعنوية، فإن ذلك مشروع كما هو معلوم، إنما كلامي في التحمل والتحمل ولا سيما في مرض لا سبيل إلى علاجه.

عناية العلماء والرؤساء بأبناء المسلمين

كان للعلماء والرؤساء بأبناء المسلمين عناية واضحة، ورعاية مخلصه، مما يجعلنا نوّسع مفهوم الأسرة ليشمل الأمة كلها، وهذا ما يثبتته التاريخ، فقد كان كل فرد من أفراد الأمة يعد نفسه مسؤولاً عن أبنائها، وإلى عهد قريب كانت الأسرة تربي، وكان الجيران يربون، وكان الحي بأكمله يشارك في ذلك، كانت معاني المسؤولية تتجسد في حرص الجميع على الأبناء، فهم يتابعون وينصحون ولا يسكتون على خطأ أو خطيئة، وهذا الموضوع جدير بالتتبع والكتابة فيه بتوسع، وحسبنا هنا أن نذكر هذه الإضاءات:

- روى أبو نعيم بسنده إلى سلمة بن شبيب حدثنا عبد الرزاق قال: رأيت سفيان الثوري بصنعاء اليمن يملي على صبي ويستملي له^(١).

- عناية الإمام أبي مسعود أحمد البجلي بعمر بن عبد الكريم الدهستاني الرواسي (٤٢٨ - ٥٠٣هـ):

دخل البجلي دهستان، واشترى من أبي الحسن عبد الكريم الدهستاني والد عمر رأساً لياكله، فقال له أبو الحسن: أراك رجلاً من أهل العلم ويقبح أن تجلس في دكاني، فادخل المسجد حتى يجيئك الرأس.

(١) حلية الأولياء (٦/ ٣٧٠).

فلما قعد في المسجد نفذ إليه رأساً حسناً مشويماً، مع الخبز النظيف والخل والبقل على يد ابنه عمر، وكان صبياً صغيراً، فنظر أبو مسعود إلى تلك الحالة فاستحسن من الرواس ذلك، فلما فرغ من الأكل شكر الرواس، وقال: أحسنت إليّ، وليس معي شيء أكافئك فهل لك في أن تسلم ابنك إليّ حتى أسمعه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ففرح أبوه بذلك، وحمل أبو مسعود عمر معه إلى شيوخ دهستان، وسمّعه الحديث، وأسمعه من نفسه أيضاً شيئاً. وانفتح عليه^(١)، وطابت له هذه الصنعة، ورحل بنفسه بعد ذلك وأكثر من الحديث، حتى سمع ما لم يسمع أقرانه^(٢)، وأصبح له ٣٦٠٠ شيخ، وقد سمع عليه الغزالي الصحيحين^(٣).

وشارك الرؤساء في العناية بأبناء المسلمين مشاركة عامة وخاصة، وهذه التي تهمنا هنا، وأذكر في هذا بعض الأمثلة:

- عناية الوزير الممدّح^(٤) عميد الدولة ابن جهير (ت: ٤٩٣) بابن الإمام أبي نصر ابن الصباغ.

(١) في الأصل: عينه.

(٢) انظر الأنساب (٩٦/٣).

(٣) انظر تذكرة الحفاظ (١١٣٧/٤).

(٤) قال العماد الكاتب: «مدحه عشرة آلاف شاعر» كما في ترجمته.

قال الصفدي في ترجمة الوزير:

«خدم ثلاث خلفاء... وكان خبيراً كافياً مدبراً فصيحاً مفوهاً مترسلاً، وله هيبه وسكون، وكلماته معدودة، كلم يوماً ولد^(١) أبي نصر ابن الصباغ فقال له: اشتغل وادأب وإلا كنت صباغاً بغير أب. فلما قام من المجلس جاء الناس إلى ابن الصباغ للهناء لكون الوزير كلمه^(٢)».

- عناية الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف الأيوبي (ت):

٦١٣هـ) بابن الإمام الفقيه علاء الدين الكاساني (ت: ٥٨٧هـ):

كان الظاهر ملك حلب، وكان الكاساني صاحب الكتاب المشهور «بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع» مدرساً للفقهاء في المدرسة الحلاوية، وتوفي في حلب ودفن فيها.

قال القرشي في ترجمته: «وخلّف ولداً ذكراً، وتولى الملك الظاهر

تربيته، واجتهد في اشتغاله بالفقهاء فلم ينجب^(٣)».

إن هذه الأمثلة تدل دلالة ظاهرة على حرص العلماء والرؤساء على

أبناء المسلمين، وشعورهم بهم، ورغبتهم في تقديم العون لهم، والتقدم

(١) في الأصل: لولد.

(٢) الوافي بالوفيات (١/ ٢٧٢).

(٣) الجواهر المضية في طبقات الحنفية (٤/ ٢٨).

بهم لاسيما إذا كانوا أبناء علماء، شع العلم في بيتهم، واستضاء الناس
بآبائهم.

هذه الأمثلة - وهناك الكثير غيرها بلا شك - تعلمنا أن نعد كل
أبناء المسلمين أبناءنا، ونحرص عليهم حرصنا على ذريتنا، ونقدم لهم ما
نستطيع مما آتانا الله من مكنة علماً ومالاً وتوجيهاً ونصحاً وسلوكاً^(١).

(١) وقرأ إن شئت «العناية بطلاب العلم عند علماء المسلمين».

صور سلبية

أقول: قد رأينا فيما مضى صوراً مشرقة من رعاية الأسرة المسلمة للأبناء، ومع ذلك فإننا لا نعدم أن نرى بعض الصور التي حصل فيها تقصير من بعض الآباء، كالذي وقع من إبراهيم والد القاضي أبي يوسف يعقوب الكوفي، وأسوق هنا خبره عسى أن يكون في ذلك تذكرة للآباء الذين قد يكون لديهم أبناء نبغة وهم عنهم غافلون^(١).

- قال الخطيب البغدادي في ترجمته: «قال أبو يوسف: كنت أطلب الحديث والفقه وأنا مقل رث الحال، فجاء أبي يوماً وأنا عند أبي حنيفة فانصرفت معه، فقال: يا بني لا تمدنَّ رجلك مع أبي حنيفة، فإن أبا حنيفة حُبزُهُ مشوي، وأنت تحتاج إلى المعاش. فقَصَّرت عن كثير من الطلب، وآثرت طاعة أبي.

فتفقدني أبو حنيفة وسأل عني، فجعلت أتعاهد مجلسه، فلما كان أول

(١) كنت أردت أن أذكر قصة المهندس سند بن علي التي حكاها أبو جعفر أحمد بن يوسف البغدادي المصري الكاتب (ت: ٣٤٠) في كتابه «المكافأة» (ص: ١١٩) وما جرى له مع أبيه الذي سَوَّفه في شراء كتاب «المجسطي» لبطليموس، ولم يكتشف نبوغه. وهذه القصة نقلها الأستاذ الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى في كتابه «صفحات من صبر العلماء» (ص: ٢٧٥-٢٧٧)، ثم اكتشفت أن المهندس سنداً هذا كان يهودياً، وأسلم على يد المأمون، كما في «الفهرست» لمحمد بن إسحاق النديم، (ص: ٤٣٩) فخرج عن شرطي - وهو الحديث عن الأسرة المسلمة - أصلاً.

يوم أتيته بعد تأخري عنه، قال لي: ما شغلك عنا؟ قلت: الشغل بالمعاش وطاعة والدي، فجلست، فلما انصرف الناس دفع إلي صُرة وقال: استمتع بهذه، فنظرت فإذا فيها مئة درهم، فقال لي: الزم الحلقة، وإذا نفذت هذه فأعلمني.

فلزمت الحلقة، فلما مضت مدة يسيرة دفع إلي مئة أخرى، ثم كان يتعاهدني وما أعلمته بخلة قط، ولا أخبرته بنفاد شيء، وكان كأنه يجبر بنفادها حتى استغنيت وتمولت^(١)، فلزمت مجلسه حتى بلغت حاجتي وفتح الله لي بركته وحُسن نيته ما فتح من العلم والمال، فأحسن الله عني مكافأته وغفر له».

ومن الصور السلبية ما جرى من بشير بن أبي حازم الواسطي والد المحدث هشيم، وإن كان انتبه ورجع، وإليك قصته:

«قال أبو إسحاق الحربي: كان بشير صاحب صحناة^(٢) وكواميخ^(٣)، وطلب ابنه هشيم الحديث فاشتتهاه، وكان أبوه يمنعه. فكتب الحديث

(١) تاريخ بغداد (١٤ / ٢٤٤)، وما بعده زيادة من مناقب أبي حنيفة للخوارزمي (ص: ٤٦٩).

(٢) الصحناة: هو السمك المطحون، كما في المعتمد في الأدوية المفردة (ص: ٢٨٤).

(٣) الكواميخ: بفتح الميم، وربما كسرت، معرب، وهو ما يؤتدم به، يقال له: المري، ويقال: هو الرديء منه، والجمع كواميخ. المصباح المنير (ص: ٥٤٠).

حتى جالس أبا شيبية القاضي، وكان يناظر أبا شيبية في الفقه، فمضى هشيم، فقال أبو شيبية؟ ما فعل ذلك الفتى الذي كان يجيء إلينا؟ قالوا: عليل. فقال: قوموا بنا حتى نعوده.

فقام أهل المجلس جميعاً يعودونه حتى صاروا إلى منزل بشير، فدخلوا إلى هشيم، فجاء رجل إلى بشير ويده في الصحناء فقال: الحق ابنك قد جاء القاضي يعوده. فجاء بشير والقاضي في داره. فلما خرج قال لابنه: يا بني قد كنتُ أمتنعك من طلب الحديث، فأما اليوم فلا، صار القاضي يجيء إلى بابي، متى أمّلتُ هذا؟^(١).

فلو استجاب هشيم لمنع أبيه لنشأ مثله طباخاً، وليس العمل عيباً، ولكن ينبغي أن لا يكون مانعاً من العلم.

وأصبح هشيم من أئمة العلم، وروى عنه الحديث: مالك بن أنس، وسفيان الثوري، وشعبة بن الحجاج، وعبد الله بن المبارك، ويزيد بن هارون، وجماعة آخرون من الكبار، منهم أحمد بن حنبل الذي لزمه أربع سنين أو خمساً. وتوفي سنة (١٨٣ هـ)^(٢).

(١) صفة الصفوة (٣/١٥).

(٢) صفة الصفوة (٣/١٦-١٧).

نتائج الكتاب

بعد هذه الجولة الممتعة مع الأسرة ورعايتها لأبنائها نخلص إلى النتائج الآتية:

- ١- آمنت الأسرة بأن لصلاحها أثراً ظاهراً وباطناً في صلاح الأبناء، فكان ذلك عاملاً في كثرة طاعتها، والإقبال على صلاتها وصيامها وصدقاتها، توسلاً إلى الله أن تعود بركة هذا العمل الصالح على الذرية.
- ٢- تميزت الأسرة المسلمة باستحضار حقوق الأبناء في الأذهان، بحيث كانت تذكُرهم وتشعر بمسؤوليتها عنهم في المحافل العلمية، والمجالس الإرشادية، لتنقل إليهم هذا العلم وذلك الإرشاد.
- ٣- كان من عمد رعاية الأسرة المسلمة للأبناء الدعاء لهم في مراحل حياتهم كلها، بل قد يبدأ ذلك قبل حمل الأمهات بهم. لما في الدعاء من خير عظيم وإكرام عميم من الحق سبحانه للداعي والمدعو له، وقد ظهرت آثاره في الأبناء أيما ظهور.
- ٤- ومن العمد: عرض الأبناء على عباد الله الصالحين، وفي ذلك أهداف متعددة، منها: التماس دعواتهم، ومنها: طلب نصحتهم وإرشادهم وتوجيههم، ومنها: ربطهم بهؤلاء العباد الصالحين ليتأثروا بهم، ويقتفوا سبيلهم.
- ٥- ومنها: إطعامهم الحلال الخالص، إيماناً من الأسرة بأثر الحلال الحاسم

في أجسادهم وعقولهم وقلوبهم، وآثاره الجليلة في سلوكهم وأعمالهم
وتصرفاتهم.

٦- ومنها: توجيههم إلى طلب العلم ونصحهم بذلك، بل يتعدى الأمر
التوجيه والنصح إلى قيام الأسرة بذلك قياماً عملياً، وعنايتها به عناية
تطبيقية، حتى لا يبقى التوجيه قولاً عابراً، والنصح خاطراً سائراً.

٧- ومنها - وهو مرتبط بما قبله - : قيام الأسرة بحمل الأبناء الصغار إلى
مجالس العلم والعلماء، والقراءة والدرس والإفادة، ليرتبطوا روحياً
ونفسياً وعملياً بالعلم والعلماء ومجالسهم، ويتابعوا هذا حين تفتح
وعينهم وإدراكهم.

٨- ومنها: أن تباشر الأسرة - إذا كان فيها عالم، أو شخص قادر على
الإفادة - تعليم الأبناء بنفسها، فالأقربون أولى بالمعروف، والأسرة
قد تكون أعرف بنفسياتهم ومداركهم، والسبيل الموصل إلى رغباتهم
وقناعاتهم، وإشباع هذه الرغبات، ومقاربة تلك القناعات. وليس من
المعقول أن يعلم الأب أو الأم الآخرين ويدعا الأقربين.

٩- ومنها: تفخيم شأن العلم في تصوراتهم وتصديقاتهم، لما في ذلك من
الاهتمام به وتكريمه، وتقديره وتعظيمه، ومعرفة جلالته ومنزلته،
ليقبلوا عليه، ويبدلوا له أنفسهم وأموالهم، ويصرفوا له أعمارهم
وأنظارهم.

١٠ - ومنها: بذل الأموال لهم وإنفاقها عليهم من أجل أن ينصرفوا إلى العلم، ويتفرغوا له، طلباً وتحصيلاً، وفهماً وحفظاً، إيماناً من الأسرة بأن هذا الإنفاق من أجل القربات وأفضل الطاعات. وتغذية العقول مقدمة على تغذية الأجسام، فالأولى تقود إلى الفضل العظيم، والثانية - بلا علم وبلا اعتدال - تؤدي إلى الفضول الذميم.

١١ - ومنها: متابعتهم في أمورهم الحيوية، كبيرها وصغيرها، ورقابتهم وتتبع خطواتهم وخواطرهم، وتقديم ما ينبغي تقديمه لهم في اللحظة المناسبة، نصحاً زاحراً بالشفقة، وتوجيهاً مفعماً بالحرقة، وتعليماً لا يقدر بثمن، وتفهيماً لا يعوض بعوض.

وقد نتج عن هذا تراث واسع، متميز رائع، زخرت به الصفحات، وحفلت به الدراسات.

١٢ - ومنها: تعليمهم أدباً مهماً للغاية، هو أدب الكلام، هذا الأدب الذي يرتفع مَنْ يأخذ نفسه به ويراعيه، ويسقط مَنْ يهمله ويتساهل فيه، وقد ضربت الأسرة المسلمة في ذلك أروع الأمثال، في متابعة أبنائها والانتباه إلى كلامهم، وبواعث هذا الكلام، وتقديم النصائح العالية لهم في هذا المجال الحساس، فاللسان وإن كان من أصغر أعضاء الإنسان إلا أنه يمكن أن يقود صاحبه إلى الجنة، ويمكن أن يقوده إلى النار.

١٣- ومنها: الاحتفال بهم عند كل مرحلة من مراحل حياتهم، وأولاهم ولادتهم، وثانيها ظهور مواهبهم في إتقان قراءة القرآن أو حفظه، وثالثها تحقيق بعض الإنجازات العلمية والعملية، وذلك سعياً لتكوين وجودهم الاجتماعي، وتأسيساً لإشراكهم في حوادث الحياة ومهماتها، ومقتضياتها ومتطلباتها.

١٤- ومنها: القول الصادق والعمل الجاد على ربطهم بخالقهم - سبحانه وتعالى - لتعمر القلوب بمحبته، وتعظم النفوس بالثقة به، وليرقى السلوك بمراقبته، وتجمل الأعمال بحسن التوجه إليه وإرادته.

وهذا العمود من أعظم العمد التي قامت عليها خيمة الرعاية الإسلامية في بناء الإنسان، وتشيد الأوطان، وللأسرة في ذلك طرق متنوعة وأساليب متعددة، يمكن الاستفادة منها في كل وقت وحين.

١٥- ومنها: إعانتهم على ما يتوجهون إليه من سبل الخير، مما يوافق تطلعاتهم وتوجهاتهم، وينسجم ورغباتهم ونياتهم، وكلُّ ميسرٍ لما خلق له، فلا يجبرون على مسلك لا يجدون نفوسهم سالكة فيه، ولا يقسرون على تكرار صور والديهم واستنساخ شخصياتهم.

١٦- ومنها: تلبية نداء الفطرة، والاستجابة لصرخة الغريزة، تحصيناً لهم من جوعٍ قد ينتهي بالانحراف المقيت، وظماً ربماً يجزُّ صاحبه إلى كأس

محرمة، وليلة مظلمة، تتوعر بعدها دروب حياتهم، وتترك خدشاً في صفاء سيرتهم، ونقاء مسيرتهم.

١٧- ومنها: برُّهم ورعاية مشاعرهم، معاملةً بالمثل، وقياماً بالفضل، فكما يجب الوالدان بر الأبناء بهما، وحفظ مشاعرهما، فكذلك الأبناء يجبون منها حسن المعاملة، والإحساس بهم، وتقدير رغباتهم، وإشباع عواطفهم.

١٨- ومنها: تعليمهم كيفية اختيار الأصدقاء، ولفت أنظارهم إلى تجنب مَنْ عرف ببعض الصفات الذميمة والأخلاق الشائنة، فالصاحب ساحب، والمرء على دين خليله، وكم من شخص ارتفع بمن يصاحبه، وكم من شخص هوى كذلك!

١٩- ومنها: اشتراك الأقارب في هذه الرعاية، وحرص الجميع على القيام التام بما تتطلبه الرعاية من شؤون وفنون، في وجود الوالدين، وفي غيابهما أو غياب أحدهما، ومن الطبيعي أن يكون التدخل في ذلك الغياب أجلى وأكبر.

ومن هنا كان للأخوال والخالات، والأعمام والعمات، وأبنائهم، جهد بارز في التربية والتعليم، والإعانة والإغاثة.

٢٠- ومنها: تأليف كتب موجهة إليهم، يودع فيها الآباء - ولم أجد

مَنْ فعل ذلك من الأمهات - مِنْ علمهم وتجاربهم وسيرة حياتهم وتاريخهم ونصائحهم وتوجيههم ما ينفع الأبناء، ويساعد في تكوين شخصيتهم العلمية وثقافتهم الاجتماعية، وقد تعددت هذه المؤلفات وتنوعت، بحسب تخصصات مؤلفيها واهتماماتهم، وبحسب ما يروونه ويقدرونه نافعاً مفيداً لأبنائهم، ورغبتهم في تخصصهم المستقبلي. ونتج عن ذلك ثروة علمية تعليمية رائعة، انتفع بها الأبناء الصليبيون والقلبيون على السواء.

٢١- ومنها: عدم إدخال الغمّ عليهم، وتنغيص حياتهم، بالشكوى الدائمة من الأمراض والآلام، والمشاكل والمشكلات وما إلى ذلك، ومحاولة الظهور أمامهم بمظهر الصابر الشاكر، المتحمّل المتجمل، وفي ذلك ضمان هيبة الوالدين، وقدرتهم على تحمّل مسؤولياتهم، وضمان بقاء البيت واحةً راحةً للجميع.

٢٢- ومنها: اشتراك علماء الأمة ورؤسائها في رعاية أبناء المسلمين، توسيعاً لمفهوم الأسرة المسلمة، وتأكيداً لأهمية العناية بالنشء المسلم، فعلى الجميع أن يسهم في هذا المجال بما يستطيعه من علم وفكر، أو بذل ومال، أو جهد ودأب، فأبناء اليوم هم آباء الغد، وهم اليوم يُصنعون، وغداً سيصنعون.

نداء إلى الآباء والأمهات

والآن بعد أن طوفنا برياض رعاية الأسرة المسلمة للأبناء في ماضيها،
يحسن أن نطلق هذا النداء الذي يضعنا وجهاً لوجه أمام المطلوب منا، أو
جزء من المطلوب:

١- اعملوا على إصلاح أنفسكم، وصلاح حالكم مع مولاكم، واعلموا
أن لصالحكم أثراً في صلاح أبنائكم، ولا يضيع عند الله مثقال ذرة.

وإذا رأى الأبناء صلاحكم تعلموا منه، وانطبع في أذهانهم، وتمثلوه في
حياتهم أيضاً.

والصلاح يبدأ بتوبة نصوح، واستقامة على الطريق، وتجنب الأخطاء
والخطايا قدر الإمكان.

٢- استحضروا حقوق أبنائكم عليكم دائماً، فإذا رأيتم، أو سمعتم خيراً،
حاولوا نقله إليهم، وإطلاعهم عليه، واحرصوا على أن يتعلموه
ويستوعبوه، ولا تستقلوا الخير مهما كان قليلاً أو صغيراً، ففي الخير
بركة تنميه، وفي القيام به وتطبيقه بركات ترعاه وتجليه.

ورب فائدة لا يلقى لها بال، نقلها الآباء إلى أبنائهم في ساعة من نهار

أو ليل، كان لها في مستقبل أيامهم أثر كبير، ونفع خطير، وكانت سبباً
في حصول مغنم، أو دفع مغرم.

٣- ادعوا لأبنائكم دائماً، أن يكرمهم الله بعلم نافع، وعمل صالح، وحياة
سعيدة، وصحة دائمة، وأن يرضى عنهم في الدارين. فإن دعاءكم لهم
ذخيرة لا تنفد، وعون لهم لا يحد، يرون أثره في أوقات الشدة واللين،
ويتلمسون بركته في سائر أحوالهم وأطوارهم.

إن الدعاء واللياذ بالله واستمطار رحمته وكرمه من أعظم ما يقدمه الآباء
لأبنائهم، فلا تغفلوا عن ذلك، ولا سيما أوقات الإجابة، وساعات
الإجابة.

٤- اعرضوا أطفالكم على مَنْ تتوسمون فيه الصلاح والعلاقة الوثقى
بالله سبحانه، احموهم إليهم، واطلبوا لهم منهم الدعاء، واكتبوا هذا
في يومياتكم أو مذكراتكم، لتنشأ بين أطفالكم وبين هؤلاء صلة قلبية،
وصلة حقيقية، إذا امتدت الأعمار بهم جميعاً.

٥- احرصوا على أن تطعموهم الحلال الخالص، فإنهم أمانة في أعناقكم،
وقد وثقوا بكم واستسلموا لما تأتونهم به، وكلنا يدرك ما للتغذية
بالحلال من آثار على الإنسان في عقله وقلبه وجسده، فلننظر في

أموالنا، ولنسعى إلى أن تكون حلالاً، أينما كنا وكانت أعمالنا، إن مما
يجب أن يشغل المسلم دائماً تحريه الشديد في كسبه، والنظر الفاحص في
كل ما يدخل جيبه أو جوفه.

٦- انصحو أبناءكم بطلب العلم ووجهوهم إليه، وكونوا وراءهم، ولا
تسمحوا لهم بالإعراض عنه، والتفريط به، فحياة بلا علم لا خير فيها،
والأبناء في طفولتهم ونشأتهم قد لا يدركون قيمة العلم، ولا يعرفون
فضله، ولا يحسون بمخاطر الجهل عليهم وعلى مجتمعاتهم، فمن هنا
كان على الآباء القيام بهذا الواجب قياماً تاماً، متنوع الأساليب، متعدد
المسالك، ومن المهم أن لا تعرفهم الغفلة، ولا ينال منهم اليأس، وأن
لا يتهاونوا في هذا الجانب أبداً.

٧- احموا أولادكم إلى المجالس العلمية، والمحافل الثقافية، وأطلعوهم
على هذه الأجواء، وأشركوهم بها، مهما كانت أعمارهم، وليكن هذا
في بيئاتكم، أو بيئات تسافرون إليها، وإذا كان الأولاد صغاراً لا
يدركون فاكتبوا لهم في أوراق تحفظونها لهم أنهم حضروا محاضرة
للعالم الفلاني، أو أمسية للأديب الفلاني، وجرى كذا وكذا، وإذا كانوا
مدرسين فأكدوا لهم أهمية هذا بالحديث عنه دائماً، واربطوهم بالعلم

والأدب من خلال ربطهم بالعلماء - في شتى تخصصاتهم - والأدباء
- في مختلف مجالاتهم..

ومن الجميل جداً إحياء سنة العلماء في إسماع أطفالكم الحديث النبوي،
وتحصيل الإجازات لهم من أهله وأربابه.

٨- إذا كنتم من أهل العلم، أو قادرين على الإفادة - مهما كانت - فباشروا
تعليم أبنائكم بأنفسكم، أعطوهم ما لديكم، وامنحوهم ما عندكم،
واجلسوا معهم، وساعدوهم في دراستهم، ودارسوهم، وتعرفوا
إلى مستواهم ودرجة ذكائهم، وما لديهم من مواهب وقدرات، وما
يستهوهم من العلوم والآداب والفنون، وإذا اكتشفتهم فيهم شيئاً من
هذه المواهب والقدرات فاعملوا على تنميتها ورعايتها، واحذروا أن
تضيع هذه الملكات، وتخبو تلك الوقدات.

٩- عظّموا شأن العلم والعمل به في نفوس أولادكم، وعظّموا مَنْ يحمل
هذا العلم وينفع به الناس، وعظّموا حرّمات الله في أقوالكم وأفعالكم،
فإن لذلك أثراً كبيراً لديهم.

ولا تسمحوا لأحدٍ أن يهوّن من شأن العلم وتحصيله والسعي إليه
بحجة عدم جدواه دنيوياً، وقلة عائده مالياً، فإن هذا وهم كاذب،

وتوجيهه مغلوطة، ونحن - المسلمون - لا نعمل للدنيا فقط، ولا ننظر إلى المال وحده.

إن العلم - في سائر تخصصاته - وسام شرف رفيع، وهو طريق إلى الله تعالى، وإلى بناء الإنسان، ورفعته الأوطان.

وكم من إنسان درس فقيراً ثم انهالت عليه الدنيا من كل جانب!

١٠- أنفقوا على أبنائكم ليدرسوا ويتعلموا، واعلموا أن من أفضل النفقات ما كان في هذا السبيل، وأن أعظم استثمار هو الاستثمار في العلم والتعلم والتعليم، فلا تترددوا في اختيار أفضل المدارس والجامعات لهم، ولا تحملنكم قلة ذات اليد على التقصير أو القصور في ذلك، فإن عاقبة التقصير أو القصور في ذلك سيئة على المستوى الشخصي والأسري والمجتمعي.

إن الأمة مطالبة - من خلال مكوناتها وهي الأُسْرُ المسلمة - أن تولي هذا الجانب أعظم اهتمامها، وأفضل وسائلها، وأجمل أفكارها، وأعظم جهودها، فهو السبيل الوحيد الذي ينتشلها من وهبتها، وينقذها من تخلفها.

١١- افتحوا عيونكم على أبنائكم، وتابعوا أمورهم، وافهموا أنفسهم،

واعرفوا أفكارهم، وتلمسوا ما يشغلهم، وراقبوهم مراقبة المحبّ الحريص الشفاف، لا مراقبة المبغض الشاك الثقيل، ولا تشعروهم بعبء متابعتكم لهم، وانصحوهم ووصوهم، وأنيروا لهم الطريق بكلماتكم وتوجيهاتكم، وأوصلوا إليهم ما يعصم عقولهم من الانحراف، وقلوبهم من التشتت، ونفوسهم من الحيرة، وأشعروهم أنكم سند لهم، لا سد أمامهم.

١٢- علموا أولادكم الآداب الحسنة، وفي ذروتها أدب الكلام، كيف يتكلمون، وماذا يقولون، وضرورة مراعاة المقام، ومعرفة المخاطب، والتوقي في الكلمة، والورع في الحديث، والحيلة في إطلاق الأحكام، والحذر من مغبة الكلام، وراجعوهم في أقوالهم، وحاسبوهم إذا فرطوا بهذا الأدب، وازرعوا في نفوسهم أننا يجب أن نكون أمة أفعال محسوبة، لا أقوال فارغة مهذرة، وذكروهم بأثر اللسان على الإنسان في دنياه وآخرته، وعرفوهم خطر هذا العضو الصغير في حجمه، الكبير في أثره.

١٣- كوّنوا لهم شخصيةً اجتماعيةً، حين ولادتهم، ثم في سائر مراحل حياتهم، ولا سيما مراحل النجاح في دراسةٍ أو عملٍ أو كليهما، وهذا التكوين يبدأ بالعقيدة، ثم بنحر ما يُنَحَرُ وجمع الناس وإطعامهم حين

تحقيق إنجاز كحفظ القرآن مثلاً، والنجاح من مرحلة دراسية إلى أخرى، ويتأكد هذا إذا كان نجاحاً متميزاً.

إن الاهتمام بنجاح الأبناء وتميزهم من أفضل الوسائل لإدامة هذا النجاح والتميز، وزيادته وتطويره، وهو من أفضل الوسائل كذلك لبناء وجودهم الاجتماعي، ودخولهم في المجتمع دخولاً سليماً مؤثراً فاعلاً.

١٤ - علّقوا أبناءكم بالخالق الرازق العظيم، واربطوا قلوبهم به، وقفوهم على بابه، وعظموه في نفوسهم، ولا تدعوا فرصة - ولو على مائدة طعام، أو في جلسة سمر، أو في الطريق إلى المسجد، أو غير ذلك - دون أن تغتنموها بالحديث عنه - سبحانه -، وذكر نعمه، وتواتر إفضاله، وواسع كرمه، وحقوقه على عبده، وأمره ونهييه، وحكمه وحكمته.

إنّ ارتباط القلوب بالله عز وجل يعصمها من الزلل والخلل، ويمنحها طاقة لا تحد على العمل النافع في الميادين كلها، ويخلصها من شوائب الدنيا، ويطلقها في عالم الصفاء والطهر والنقاء.

وستكون قرة أعينكم إذا رأيتم أبناءكم صالحين، لهم بالله علاقة وطيدة، ولهم بدينهم عروة وثقى.

١٥- أعيّنوا أبناءكم على ما يسلكون من سبيل الخير، وشجّعوهم عليها، وقفوا إلى جانبهم إذا رغبوا فيها، ولا تفرضوا عليهم مسالككم، ولا تكرهوهم على تقمص شخصياتكم، وهذا الكون قائم على التنوع، وهو من مظاهر إبداعه، ومجالي ديمومته.

إنَّ مما يحسب لكم أن تكتشفوا الدروب التي يمكن أن ينجح فيها أبناؤكم، وتعينوهم على اجتيازها بأمان وسلام، وإياكم أن تتعسفوا في استعمال الحق الذي لكم عليهم فتفسروهم على أمرٍ لهم فيه سعة، وتحملوهم على رأي، لهم فيه اختيار مقبول آخر.

١٦- للفترة والغريزة في أبنائكم متطلبات فاعملوا على تلبيتها وإشباعها، وأهمُّ هذه المتطلبات نداء الحاجة إلى الزواج وإعفاف النفس وإرواء ظمئها، وإذا كان الزواج يشهد هذه الأيام تأخراً بسبب النظام التعليمي، وكثرة مطالب ذوي الفتيات، فإن على العقلاء والمربّين أن ينظروا في هذه المشكلة نظراً جاداً، ويوجدوا الحلول العملية لها، ومن أهم المقترحات لحل هذه المشكلة العمل على منع عرفٍ فاسدٍ من أن يحكم ويتحكم في حياة الشباب والشواب، ويؤرق عيونهم، ويشغل بالهم، ويفسد حياتهم، ويدنس طهرهم.

١٧- أنتم تتطلعون إلى بر أبنائكم بكم ورعاية مشاعركم، فهل تعلمون

أنهم كذلك يتطلعون إلى بركم بهم ورعاية مشاعرهم؟ لذلك فمن الجميل جداً أن يعود الآباء والأمهات بخيالهم إلى طفولتهم ويستذكروا الرغبات التي كانت تسكنهم، والحاجات التي أرقتهم، ويعملوا - في ضوء ذلك - على تحقيق هذه الرغبات، وقضاء تلك الحاجات لأبنائهم، مع الأخذ بنظر الاعتبار فارق الزمن، واختلاف العادات، وتغير المسارات.

١٨- للصديق في حياة أبنائنا أثر كبير جداً، فانتبهوا لأصدقاء أبنائكم، ومستواهم العلمي والخلقي والسلوكي، ورُبَّ صديق كان لصديقه جنة ونعيماً، ورُبَّ آخر كان عذاباً وجحيماً، فحاولوا أن تمهدوا الطريق أمام أبنائكم إلى جنة الأول، وتجنبوهم الاحترق بجهنم الثاني، وأثرُ الصديق على صديقه واضحٌ معروف، وقد عشناه جميعاً في حياتنا، ومن الواجب أن نفيد أبنائنا من تجاربنا، وأن لا ندعهم يقعون فريسة لصاحب السوء الذي يدمرهم ويدمرنا معهم.

١٩- الأسرة - بكل مكوناتها، من آباء وأمهات وأعمام وعمات، وأخوال وخالات، وأبنائهم من الجيل الثاني - مدعوة إلى التحقق بمعاني الأسرة الواحدة، من حيث العناية بالأبناء، وتقديم النصح والتوجيه والتعليم لهم.

إن ما يسمى بالخصوصية الأسرية يجب ألا يكون عائقاً عن تقديم النصح إذا وجب، والتوجيه إذا حق، وذلك بالأسلوب الدافئ الجميل، الذي ينصح ولا يقدر، ويستر ولا يفضح، ولتذكر الأسرة أنها كانت إلى عهد قريب تشترك في التربية، فالآباء يربون والأمهات يربين، وكذلك الأعمام والعلمات والأخوال والخالات، وكان إذا تدخل هؤلاء وجدوا من الوالدين الشكر والامتنان، والرضى والعرفان، فالعين تتقوى بأختها، والمؤمن كثير بأخيه، فلنعد إلى ما كنا عليه، لأن تربية الأبناء أعظم من أن يُفَرِّطَ بها بدعوى الخصوصية.

٢٠- من الآثار التي لا تفتنى، والعناية التي لا تمحوها الأيام، أن يقوم الآباء بتأليف كتب علمية وأدبية للأبناء، يودعونها من علمهم وأدبهم وتجاربهم ما يرونه نافعا لهم، محققاً لتكوينهم تكويناً قوياً. وقد كان هذا في الأسرة المسلمة واستمر مئات السنين، ومن هنا كان لزاماً على الأسرة المعاصرة أن تعتز بهذه السيرة، وتتابع تلك المسيرة، وأن تؤلف لأبنائها كتباً ورسائل بلغة هذا العصر ومعطياته، ويسيهم في دفعهم إلى ذلك وتسهيله وتذليله دافعاً فطرياً، هو حب الأبناء وإرادة الخير لهم، وسيقبل على هذه الكتب الصادقة المؤثرة غيرهم، ويكون ذلك وسيلة لتعميم العلم ونشر الثقافة. فلنكتب ولو خطرات أو ذكريات أو تجارب، أو مواقف.

٢١- لا تدخلوا الغمَّ على أولادكم، بالشكوى الدائمة من عوارض الدنيا، وحافظوا على تماسككم أمامهم، وحافظوا على أن يظل البيت دائماً واحة أنس، وملاذراحة، ومستجماً جميلاً من أعباء الحياة.

٢٢- كان للعلماء والملوك والأمراء إسهام كبير في العناية بأبناء المسلمين، والنظر إليهم كأبنائهم، والحاجة إلى هذا الإسهام تتجدد بتجدد الأيام والليالي.

نحن أسرة واحدة، وأمة واحدة، وجسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

وما أجمل أن ينظر الجميع إلى الأبناء نظرهم إلى أبنائهم، ويعاملوهم معاملة لهم، ويحرصون عليهم حرصهم على أولئك!

٢٣- تذكروا - أيها الآباء والأمهات - أنكم إذا فرطتم بهذه المسؤولية، وقصرتم في اكتشاف ذرياتكم فإنكم ستحاسبون أمام الله، والتاريخ لكم بالمرصاد، كما رصد ثغرات وقعت، وغفلة حصلت، فأعيدوا النظر في مواقفكم، وجددوا العلاقة بأبنائكم، وادرسوا ملفاتهم، وتغلغلوا في أعماقهم، واعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون.

* * *
* *
*

المصادر

- إتحاف السادة المتقين للزبيدي (ت: ١٢٠٥هـ)، تصوير مؤسسة التاريخ العربي (١٤١٤هـ-١٩٨٤م) عن الميمنية، القاهرة (١٣١١هـ).
- الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين ابن الخطيب (ت: ٧٧٦هـ)، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٢ (١٣٩٣هـ-١٩٧٣م).
- إحياء علوم الدين للغزالي (ت: ٥٠٥هـ)، دار المعرفة، بيروت.
- الأدب المفرد للبخاري (ت: ٢٥٦هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي (ت: ١٣٨٨هـ)، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط ٤ (١٤١٧هـ-١٩٩٧م).
- الآداب الشرعية والمنح المرعية لابن مفلح (ت: ٧٦٣هـ)، تصوير مؤسسة قرطبة عن طبعة الشيخ محمد رشيد رضا.
- إرشاد السالك إلى أشرف المسالك في فقه الإمام مالك لابن عسكر المالكي البغدادي (ت: ٧٣٢هـ)، انظر: أسهل المدارك.
- أسهل المدارك شرح إرشاد السالك لأبي بكر حسن الكشناوي، دار الفكر، بيروت.
- الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (ت: ٨٥٢هـ)، تصوير دار إحياء التراث العربي، بيروت، عن طبعة ١٣٢٨هـ.
- أعلام العراق لمحمد بهجة الأثري (ت: ١٩٩٦م)، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ط ٢ (١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م).
- إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء للطباخ (ت: ١٣٧٠هـ)، بعناية محمد كمال، دار

- القلم العربي، حلب، ط ٢ (١٤٠٨هـ-١٩٨٨م).
- الأعلام للزركلي (ت: ١٣٩٦هـ)، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١١ (١٩٩٥م).
- الإقناع لما حوى تحت القناع لناصر بن عبد السيد المطرزي (ت: ٦١٠هـ)، تحقيق: محمد أحمد الدالي وسلامة عبد الله السويدي، إصدار مركز البحوث والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، ط ١ (١٤١٩هـ-١٩٩٩م).
- ألف بالبلبوي (ت: ٦٠٤هـ)، تصوير دار الكتب، بيروت، ط ٢ (١٤٠٥هـ-١٩٨٥م).
- الإمام الرباني العلامة الشيخ أبو الخير الميداني لمحمد مطيع الحافظ، نسخة مصفوفة خاصة غير منشورة.
- الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة لعبد الغني الدقر (ت: ١٤٢٣هـ)، دار القلم، دمشق، ط ٣ (١٤١٠هـ-١٩٩٠م).
- إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي (ت: ٦٤٦هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، تصوير دار الفكر العربي، القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط ١ (١٤٠٦هـ-١٩٨٦م).
- الأنساب للسمعاني (ت: ٥٦٢هـ)، تقديم وتعليق: عبد الله عمر البارودي، دار الفكر، بيروت، ط ١ (١٤١٩-١٩٩٨م).

- الأولاد ودائع الله عندنا لمعوض عوض إبراهيم، القاهرة (دون بيانات)، وتاريخ مقدمة المؤلف (١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م).
- البداية والنهاية لابن كثير (ت: ٧٧٤هـ)، مكتبة المعارف، بيروت، ط ٧ (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).
- تاريخ الإسلام للذهبي (ت: ٧٤٨هـ)، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣ (١٤١٥هـ - ١٩٩٤م).
- تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (ت: ٤٦٣هـ)، تصوير دار الفكر، بيروت.
- تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري لمحمد مطيع الحافظ ونزار أباطة، دار الفكر، دمشق، ط ١ (١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).
- تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر (ت: ٥٧١هـ)، تحقيق: عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت (١٤١٥هـ - ١٩٩٥م).
- التجبير في المعجم الكبير للسمعاني (ت: ٥٦٢هـ)، تحقيق: منيرة ناجي سالم، إصدار وزارة الأوقاف العراقية، مطبعة الإرشاد، بغداد (١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م).
- التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة للسخاوي (ت: ٩٠٢هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١ (١٤١٤هـ - ١٩٩٣م).
- تذكرة الحفاظ للذهبي (ت: ٧٤٨هـ)، تصوير دار إحياء التراث العربي عن الطبعة الهندية.

- التذكرة لابن الملقن (ت: ٨٠٤هـ)، تحقيق: ياسين بن ناصر الخطيب، دار المنارة، جدة، ط١ (١٤١٠هـ-١٩٩٠م).
- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك لعياض (ت: ٥٤٤هـ)، تحقيق: أحمد بكير محمود، دار مكتبة الحياة، بيروت. وطبعة المغرب، وأشير إلى المقصودة.
- تقريب الأسانيد وترتيب المسانيد لعبد الرحيم العراقي (ت: ٨٠٦هـ)، انظر: طرح التثريب.
- تقريب الوصول إلى علم الأصول لابن جزى الكلبي (ت: ٧٤١هـ)، تحقيق: محمد المختار بن محمد الأمين الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط١ (١٤١٤هـ).
- التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار (ت: ٦٥٨هـ)، تحقيق: عبد السلام الهراس، دار الفكر، بيروت (١٤١٥هـ-١٩٩٥م).
- تنبيه المغترين أواخر القرن العاشر على ما خالفوا فيه سلفهم الطاهر للشعراني (ت: ٩٧٣هـ) ضبطه وعلق عليه عبد الجليل العطا، دار البشائر، دمشق، ط٧ (١٤٢١هـ-٢٠٠١م).
- تهذيب الرياسة وترتيب السياسة للقلعي (ت: ٦٣٠هـ)، تحقيق: إبراهيم يوسف ومصطفى عجو، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، ط١.
- تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي (ت: ٧٤٢هـ)، تحقيق: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٤ (١٤٠٦هـ-١٩٨٥م).

- توضيح المشتبه لابن ناصر الدين الدمشقي (ت: ٨٤٢هـ)، تحقيق: محمد نعيم العرقوسي، مؤسسة الرسالة، ط ٢ (١٤١٤هـ - ١٩٩٣م).
- الجرح والتعديل لابن أبي حاتم الرازي (ت: ٣٢٧هـ)، تصوير دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- الجواهر المضية في طبقات الحنفية لعبد القادر القرشي (ت: ٧٧٥هـ)، تحقيق: عبد الفتاح الحلو، هجر للطباعة، ط ٢ (١٤١٣هـ - ١٩٩٣م).
- الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر للسخاوي (ت: ٩٠٢هـ)، تحقيق: إبراهيم باجس عبد الحميد، دار ابن حزم، بيروت، ط ١ (١٤١٩هـ - ١٩٩٩م).
- الحاوي للفتاوي للسيوطي (ت: ٩١١هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، تصوير المكتبة العصرية، بيروت.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم (ت: ٤٣٠هـ)، تصوير دار الكتاب العربي، بيروت (١٤٠٥هـ).
- الدراري في ذكر الدراري لابن العديم (ت: ٦٦٠هـ)، تحقيق: علاء عبد الوهاب محمد، دار السلام، القاهرة، ط ١ (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م).
- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون (ت: ٧٩٩هـ)، تحقيق: محمد الأحمد أبو النور، مكتبة دار التراث، القاهرة.
- ديوان أبي تمام (ت: ٢٣١هـ)، (ضمن برنامج المكتبة الشاملة).
- ذيل الدرر الكامنة لابن حجر (ت: ٨٥٢هـ)، تحقيق: عدنان درويش، إصدار

- معهد المخطوطات العربية، القاهرة (١٤١٢هـ-١٩٩٢م).
- الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (ت: ٧٩٥هـ)، تحقيق: حامد الفقي، تصوير دار المعرفة، بيروت.
- الرسالة القشيرية (ت: ٤٦٥هـ)، تحقيق: عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، دار الشعب، القاهرة.
- روح الروح لمؤلف مجهول من القرن الخامس للهجري، تحقيق: إبراهيم صالح، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي، ط ١ (١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م).
- زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ)، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٤ (١٤٠٧هـ-١٩٨٧م).
- سلوة الأنفاس ومحاذئة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس لمحمد بن جعفر الكتاني (ت: ١٣٤٥هـ)، تحقيق: عبد الله الكامل الكتاني وآخرين، دار الثقافة، الدار البيضاء.
- سير أعلام النبلاء للذهبي (ت: ٧٤٨هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي الدمشقي (ت: ١٠٨٩هـ)، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ط ١ (١٤٠٦هـ-١٨٨٦).
- شكري فيصل: العالم الأديب المجمع لمحمد مطيع الحافظ، دار القلم، دمشق، ط ١ (١٤٣١هـ - ٢٠١٠م).

- صفة الصفوة لابن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ)، تحقيق: محمود فاخوري، دار الوعي، حلب، ط١ (١٣٨٩-١٩٦٩م).
- صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل لعبد الفتاح أبو غدة (ت: ١٤١٧هـ)، دار القلم، ط٣ (١٤١٣هـ-١٩٩٢م).
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوي (ت: ٩٠٢هـ)، تصوير دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، عن طبعة القدسي.
- طبقات الأولياء لابن الملقن (ت: ٨٠٤هـ)، تحقيق: نور الدين شريعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣ (١٤١٨هـ-١٩٩٧هـ).
- طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (ت: ٧٧١هـ)، تحقيق: عبد الفتاح الحلو (ت: ١٤١٤هـ) ومحمود الطناحي (ت: ١٤١٩هـ)، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
- طبقات الصوفية للسلمي (ت: ٤١٢هـ)، تحقيق: نور الدين شريعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣ (١٤٠٦هـ-١٩٨٦م).
- طبقات القراء للذهبي (ت: ٧٤٨هـ)، تحقيق: أحمد خان، إصدار مركز الملك فيصل، الرياض، ط١ (١٤١٨هـ-١٩٩٧م).
- طبقات علماء الحديث لابن عبد الهادي (ت: ٧٤٤هـ)، تحقيق: أكرم البوشي وإبراهيم الزبيق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١ (١٤٠٩هـ-١٩٨٩م).
- طرح التثريب في شرح التقريب لأحمد أبي زرعة العراقي (ت: ٨٢٦هـ)، تصوير

- دار إحياء التراث العربي، بيروت (١٤١٣هـ-١٩٩٢م).
- العبر في خبر من غبر للذهبي (ت: ٧٤٨هـ)، تحقيق: محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ (١٤٠٥هـ-١٩٨٢م).
- العقد الفريد لابن عبد ربه (ت: ٣٢٨هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١ (١٤٠٩هـ-١٩٨٩م).
- العقد المذهب في طبقات حملة المذهب لابن الملقن (ت: ٨٠٤هـ)، تحقيق: أيمن الأزهري وسيد مهني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ (١٤١٧هـ-١٩٩٧م).
- العلماء العزاب الذين آثروا العلم على الزواج لعبد الفتاح أبو غدة (ت: ١٤١٧هـ)، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط٤ (١٤١٦هـ-١٩٩٦م).
- العيال لابن أبي الدنيا (ت: ٢٨١هـ) تحقيق: نجم عبد الرحمن خلف، دار ابن القيم، السعودية، ط١ (١٤١٠هـ-١٩٩٠م).
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (ت: ٦٨٨هـ)، تحقيق: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت.
- فتاوى مصطفى الزرقا (ت: ١٤٢٠هـ)، اعتنى بها: مجد مكّي، دار القلم، دمشق، ط٢ (١٤٢٢هـ-٢٠٠١م).
- فتح باب العناية بشرح كتاب النقاية لعلي القاري (ت: ١٠١٤هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط٢ (١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م).

- فتح الباري بشرح البخاري لابن حجر (ت: ٨٥٢هـ)، الطبعة السلفية.
- فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل (ت: ٢٤١هـ)، تحقيق: وصي الله محمد عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١ (١٤٠٣هـ-١٩٨٣م).
- فقه المعاملات «دراسة مقارنة من كتاب أضواء البيان» للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، لخير عبد الراضي خليل مطيرة، مطبعة المعارف، الشارقة، ط١ (١٤٢١هـ-٢٠٠٠م).
- الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (ت: ٤٦٣هـ)، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، دار ابن الجوزي، الدمام، ط٢ (١٤٢١هـ).
- الفهرست لمحمد بن إسحاق النديم (ت: ٣٨٠هـ)، بعناية يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ (١٤١٦هـ-١٩٩٦م).
- الفوائد البهية في تراجم الحنفية لعبد الحي اللكنوي (ت: ١٣٠٤هـ)، مكتبة خير كثير، كراتشي، باكستان.
- الفوائد الضيائية شرح كافية ابن الحاجب لنور الدين الجامي (ت: ٨٩٨هـ)، تحقيق: أسامة طه الرفاعي، إصدار وزارة الأوقاف العراقية (١٤٠٣هـ-١٩٨٣م).
- في ربوع الشام لمحمد مطيع الحافظ، دار المكتبي، دمشق، ط١ (١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م).
- في سيرة الحياة لأبي الحسن الندوي (ت: ١٤٢٠هـ)، دار القلم، دمشق ط١ (١٤٠٧هـ-١٩٨٧م).

- فيض القدير بشرح الجامع الصغير للمناوي (ت: ١٠٣١هـ)، تصوير دار الفكر بيروت.
- القول الصريح في الأدب الصحيح لكامل الغزي (ت: ١٣٥١هـ)، مقال ضمن مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، المجلد الخامس (١٩٢٥-١٩٢٦م).
- الكاشف للذهبي وحاشيته لسبط ابن العجمي (ت: ٨٤١هـ)، تحقيق محمد عوامة، وأحمد الخطيب، دار القبلة، ط ١ (١٤١٣هـ-١٩٩٢م).
- الكافي في الفقه على مذهب أهل المدينة لابن عبد البر (ت: ٤٦٣هـ)، تحقيق: محمود أحمد القيسية، مؤسسة النداء، أبوظبي، ط ١ (١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م).
- كشف الظنون للحاج خليفة (ت: ١٠٦٧هـ)، تصوير دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية للمناوي (ت: ١٠٣١هـ)، تحقيق: محمد أديب الجادر، دار صادر، بيروت، ط ١ (١٩٩٩م).
- الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة للغزي (ت: ١٠٦١هـ)، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١ (١٤١٨هـ-١٩٩٧م).
- لباب الآداب لأسامة بن منقذ (ت: ٥٨٤هـ). (ضمن موقع الوراق).
- لحظ الألاحظ لابن فهد (ت: ٨٧١هـ) (ضمن ذبول تذكرة الحفاظ)، تصوير دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- لسان العرب لابن منظور (ت: ٧١٠هـ)، دار صادر، بيروت، ط ٤ (٢٠٠٥م).

- لفظة الكبد في نصيحة الولد لابن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ) تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، الإسكندرية.
- المجمع المؤسس للمعجم المفهرس لابن حجر (ت: ٨٥٢هـ)، تحقيق: يوسف المرعشلي، دار المعرفة، بيروت، ط ١ (١٤١٣هـ-١٩٩٢م).
- المجموع للنووي (ت: ٦٧٦هـ)، دار الفكر، بيروت (١٩٩٧م).
- مجموعة رسائل الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود، إصدار وزارة الأوقاف القطرية، الدوحة، ط ٢ (١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م).
- محمد يوسف موسى: الفقيه الفيلسوف والمصلح المجدد لمحمد الدسوقي، دار القلم، دمشق، ط ١ (١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م).
- المحن لأبي العرب التميمي (ت: ٣٣٣هـ)، تحقيق: يحيى الجبوري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ٢ (١٤٠٨هـ-١٩٨٨م).
- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان لليافعي (ت: ٧٦٨هـ)، تصوير دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان لسبط ابن الجوزي (ت: ٦٥٤هـ)، دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد الدكن، الهند، ط ١ (١٣٧١هـ-١٩٥٢م).
- المستفاد من ذيل تاريخ بغداد لابن النجار، انتقاء الدمياطي (ت: ٧٤٩هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١ (١٤١٧هـ-١٩٩٧م).

- المصباح في النحو لناصر بن عبد السيد المطرزي (ت: ٦١٠هـ)، تحقيق: مقبول علي النعمة، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط ١ (١٤١٤هـ - ١٩٩٣م).
- المصباح المنير للفيومي (ت: ٧٧٠هـ)، دار الفكر، بيروت.
- معادن الذهب في الأعيان المشرفة بهم حلب لأبي الوفاء العرضي (ت: ١٠٧١هـ)، تحقيق: عيسى أبو سليمان أبو سليم، نشر مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، عمّان (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م).
- المعتمد في الأدوية المفردة ليوסף بن عمر الغساني (ت: ٦٩٤هـ)، صححه: مصطفى السقا، البابي الحلبي، القاهرة، ط ٣ (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).
- معجم الأدباء لياقوت الحموي (ت: ٦٢٦هـ)، تحقيق: إحسان عباس (ت: ١٤٢٤هـ)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١ (١٩٩٣م).
- معجم البلدان لياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م).
- المعجم المختص بالمحدثين للذهبي، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، مكتبة الصديق، الطائف، ط ١ (١٩٨٨م).
- معجم المطبوعات العربية والمعربة ليوסף إيان سر كس (ت: ١٣٥١هـ)، تصوير دار صادر عن طبعة سر كس بمصر (١٣٤٦هـ - ١٩٢٨م).
- معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار للذهبي، تحقيق: بشار عواد معروف وشعيب الأرنؤوط وصالح مهدي عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت،

ط ١ (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م).

- المقصد الأرشدي في ذكر أصحاب الإمام أحمد لابن مفلح (ت: ٨٨٤هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة الرشد، الرياض، ط ١ (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م).

- المكافأة لأبي جعفر أحمد بن يوسف البغدادي المصري الكاتب (ت: ٣٤٠هـ)، تحقيق: محمود شاكر، مطبعة الاستقامة، القاهرة (١٣٥٩هـ).

- مناقب أبي حنيفة للموفق الخوارزمي (ت: ٥٦٨هـ)، تصوير دار الكتاب العربي، بيروت (١٤٠١هـ - ١٩٨١هـ).

- المنتخب من معجم شيوخ الإمام الحافظ أبي سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني التميمي (ت: ٥٦٢هـ)، تحقيق: موفق بن عبد الله بن عبد القادر، طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ط ١ (١٤١٧هـ - ١٩٩٦م).

- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ)، تحقيق: محمد ومصطفى ابني عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١ (١٤١٢هـ - ١٩٩٢م).

- نفحات الأنس من حضرات القدس للجامي (ت: ٨٩٨هـ)، تحقيق: محمد أديب الجادر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١ (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٢م).

- النور السافر عن أخبار القرن العاشر لعبد القادر العيدروس (ت: ١٠٣٨هـ)، تحقيقي: أحمد حالو ومحمود الأرناؤوط وأكرم البوشي، دار صادر، بيروت،

ط١ (٢٠٠١م).

- هدي الساري مقدمة فتح الباري لابن حجر، الطبعة السلفية.
- هدية العارفين للبغدادي (ت: ١٣٣٩هـ)، تصوير دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- الوافي بالوفيات للصفدي (ت: ٧٦٤هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين العرب والمستشرقين، دارالنشر فرانز شتايز-شتوتغارت، ط٣ (١٤١٢هـ-١٩٩٢م).
- وحي القلم للرافعي (ت: ١٣٥٦هـ)، تصوير دار الكتاب العربي، بيروت.
- وصية الشيخ الفقيه الحافظ أبي الوليد الباجي الأندلسي (ت: ٤٧٤هـ) لولديه، تحقيق: عبد اللطيف بن محمد الجيلاني، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط٢ (١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م).
- وصية تقي الدين السبكي (ت: ٧٥٦هـ) لولده محمد، اعتنى بها: نظام يعقوبي، نشرت ضمن المجموعة الثانية من لقاء العشر الأواخر بالمسجد الحرام، دار البشائر الإسلامية، ط١ (١٤٢١هـ-٢٠٠٠م).
- وفيات الأعيان لابن خلكان (ت: ٦٨١هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.



الفهرس

ص	الموضــــــــوع
٥	افتتاحية.....
٧	مقدمة.....
١٣	تمهيد، وفيه:.....
١٣	- المنطلقات الأساسية.....
١٤	- الملحظ الزمني.....
١٤	- مفهوم الأسرة.....
١٧	صور مشرقة من هذه الرعاية.....
٢١	عمد الرعاية عند الأسرة المسلمة.....
٢٣	الصلاح الذاتي.....
٢٧	استحضار حقوقهم في الذهن والاهتمام بذلك.....
٢٩	الدعاء والتماس الدعاء لهم.....
٣٧	عرضهم على الصالحين.....
٤١	إطابة مطعمهم.....
٤٧	تربيتهم وتوجيههم إلى العلم، والعمل به، نصحاً وتطبيقاً.....
٦٥	إحضارهم مجالس العلم وهم صغار.....
٦٩	مباشرة تعليمهم بالنفس.....
٧٧	تفخيم أمر العلم في قلوبهم وعقولهم ونفوسهم.....

ص	الموضوع
٨١	النفقة عليهم في تعلم العلم النافع
٨٩	متابعتهم في أمورهم الكبيرة والصغيرة
٩٩	تعليمهم أدب الكلام
١٠٥	العمل على تكوين شخصيتهم الاجتماعية
١٠٧	ربطهم بالله سبحانه وتعالى
١١٩	إعانتهم على سبل الخير
١٢١	تلبية متطلبات الفطرة والغريزة
١٢٣	برهم ورعاية مشاعرهم
١٢٥	تعليمهم اختيار الأصدقاء
١٢٧	تضافر جهود الأسرة والأقارب على هذه الرعاية
١٣٩	الكتابة والتأليف لهم
١٦١	عدم إدخال الغم عليهم
١٦٥	عناية العلماء والرؤساء بأبناء المسلمين
١٦٩	صور سلبية
١٧٣	نتائج الكتاب
١٧٩	نداء إلى الآباء والأمهات
١٩١	المصادر
٢٠٧	الفهرس